محمد مجدي مرجان

المسيح

إنسان أم إله

هذبه وحققه وعلق عليه

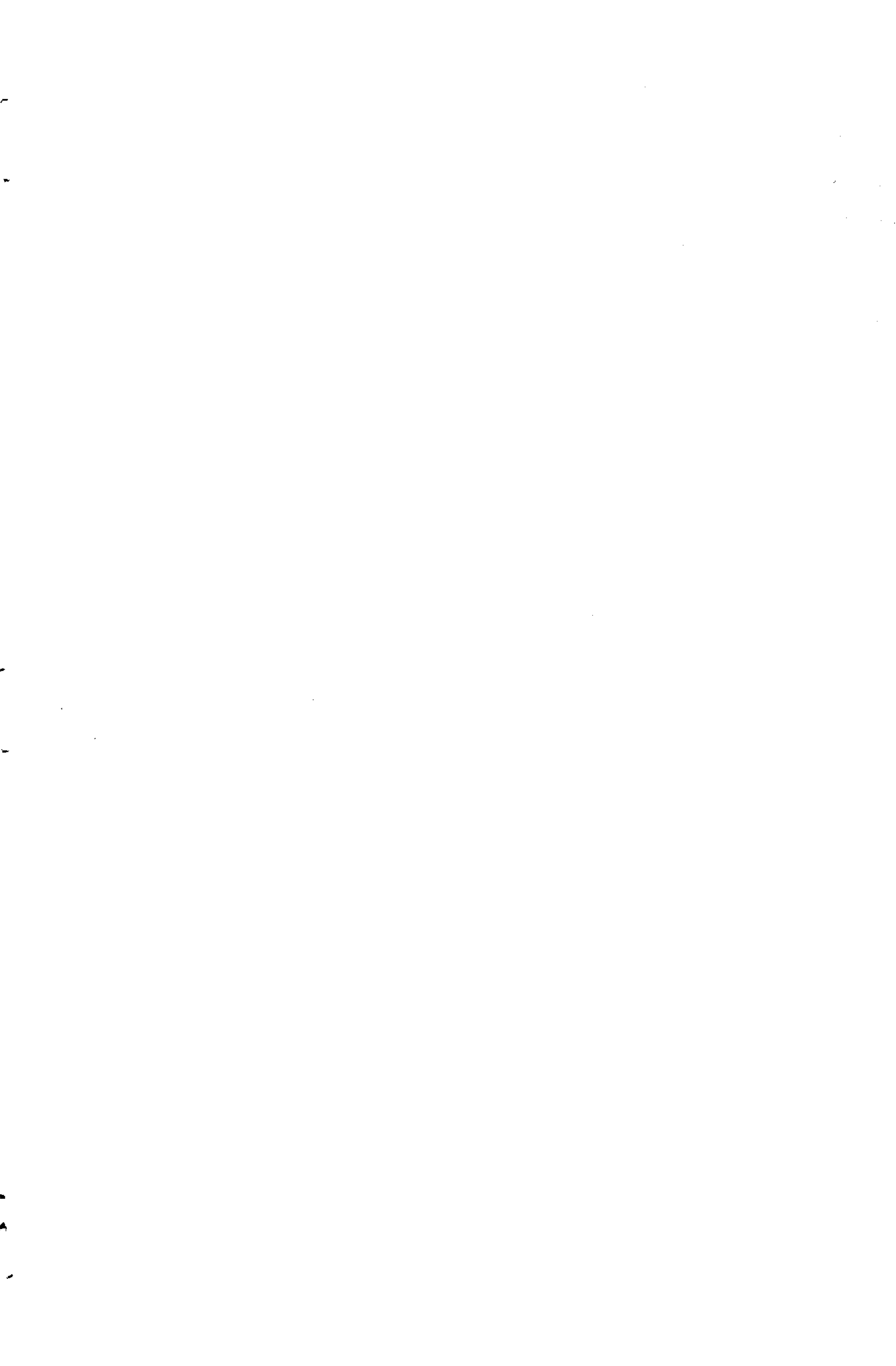
عبد الرحمن دمشقية

مكتبة الحرمين

حقوق الطبع محفوظة

المسيح

إنسان أم إله



مقدمة المحقِّق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا وسائر الأنبياء والمرسلين . أحمده وأشكره وأثني عليه الخير كله واستفتح بالذي هو خير .

وبعد :

فإنه مما لا شك فيه أن الاختلاف الواقع في شخصية المسيح كان له أثره على الصعيدين الديني والاجتماعي في النصرانية .

أما من الناحية الدينية فقد أوقع الكثيرين في « الوثنية » ، تلك الوثنية التي تحكي المصادر التاريخية للكنيسة أنها كانت أشد أعدائها ومحاربيها في الفترة الأولى للنشأة المسيحية ، هذه الوثنية المتمثلة بفكرة « الثالوث » واعتبار المسيح أحد الأقانيم الثلاثة للإله الواحد .

وهذه الفكرة حملت في طياتها مشاكل كثيرة وتناقضات جمّة أودت بالمسيحيين إلى الافتراق ، فحمل كل منهم واحدة من هذه

التنـاقضات ، ورأى أن الحق في جـانبه ، بينـما لم يعرف الحق منهم إلا من سلّم ببشـرية المسيـح وسمـو رسـالتـه ، واعتقـد أن الله واحـد لا شـريك لـه ولا ابن له ، ولا تجـزّئه أقـانيم ولا جواهـر . وكان بـذلك أولاهم بـالحق وأقـربهم إليــه « آريـوس » وجمــاعتـه الــذين أظهـروا معـارضتهم لفكرة التثليث وحـاربـوهـا لكنهم لم يكـونـوا بـالنسبـة إلى أصحاب الرأي الآخر إلا قلة ، أضف إلى ذلك اعتماد أباطرة الرومان آنـذاك فكـرة التثليث لمـا كانت عليـه من التوفيق بـين الرأي المسيحي وآراء الفـلاسفـة الـذين كـانــوا يـرون هــذا الثـالــوث المتكـون من « أوزريس » وهو الإله الأب ، و« ايزيس » الإبن و« حوريس » زوجـة الأب .

وكـان قسطنـطين أول من أضفى على هـذه الفكرة صبغـة دينية قـدسيـة تمكن بهـا من الحفـاظ عـلى كـرسيـه بعـد أن كـادت الأفكـار المتعـارضة بـين المسيحيـة « التـوحيـديـة » ووثنيـة الفـلاسفـة تهـددهـا بالزوال .

ومـع مـا لهــذه الفكـرة ـ بــالأمس واليـوم ـ من الأهميــة عنـد النصارى ، ومع كونها تشكل المحور الرئيسي الذي تقوم عليـه العقيدة النصـرانية ، فـإنها بمعدومـة الذكـر في الاناجيـل الثلاثـة الأولى ، أمـا الانجيل الرابع ـ وهو يوحنا ـ فقد كُتب خصيصاً لتقريرها وإثباتهـا بعد أن اتجهت شكاوى الأساقفـة إلى يوحنـا من اعتراض الجيـل الأول من المسيحيين عليها ، الأمر الذي يؤكـد أن التثليث لم يُبن على أي دليـل من المصادر المسيحية .

إنه لمن العجب بعد هـذا كله ألا تذكـر الاناجيـل الأربعة شيئـاً عن هذه القضية ، اللهم إلا ما ذكره يوحنا ومـع ذلك فـإن ما ذكـره لم

يأت أصالةً ، وإنما جاء إجابة على اعتراضات الذين لم تتقبل نفوسهم هذه الفكرة ولم يجدوا لها ذكراً في الاناجيل الثلاثة الأُوَل .

ومع ما لهذه الفكرة - بالأمس واليوم - من الأهمية عند النصارى - ومع كونها تشكل المحور الرئيسي الذي تقوم عليه العقيدة النصرانية . فأقول ولله الحمد :

إن الأناجيل التي نقلت أقوال المسيح وأفعاله وتعاليمه - منذ طفولته إلى نهاية بعثته - لم تنقل عنه قولاً واحداً يدعو فيه إلى نفسه و إعتباره الأقنوم الإبن لله الذي هو عندهم الأقنوم الأب . لم تورد عنه ولا كلمة واحدة تدل على ذلك ، بل غالب ما فيها يدل على بشريته ، فقد كانت تذكر دائماً نومه وأكله وصلاته وصيامه وجوعه وعطشه وتعرضه لامتحان الشيطان واختباره ، وكذلك خوفه وهربه من ملاحقيه ، وغسله أرجل تلاميذه ، وقوله لليهود الذين أرادوا دائماً قتله :

« تريدون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله »[1] ولو عرف تلاميذه ومرافقوه أنه إله لسارعوا إلى عبادته والاتجاه إليه في صلواتهم لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل ورد في صريح الاناجيل أنهم كانوا يلقبونه بـ « المعلم » و « النبي » وما هذه الصفات من صلاته ونومه . . . الخ إلا شاهد على ذلك .

والله لا تجوز عليه تلك الصفات مهما كانت الغاية ومهما كان المطلب . سواء كان السبب التضحية من أجل خلاص الناس من خطاياهم أو غير ذلك . والإله الغني عن كل شيء ، الذي : كل

---

(١) يوحنا ٨ : ٤٠

شيء يحتاج إليه ويفتقر إليه لا يجوز أن يقال بأنه ضحى بنفسه ، لأن هذا انتقاص لقدرة الله . فالمضحي لا بد أن يضحي بفقد ماله أو نفسه من أجل غاية ما ، أما الله تعالى فهو قادر على كل شيء ، وليس في حاجة إلى أن يضحي بنفسه . ثم إنه من السهل جداً على الله أن يغفر خطايا عباده من غير أن يضحي بولده ـ كما يزعمون .

إن فكرة التضحية والخلاص تعطي صورة مشوهة وضيقة عن رحمة الله الواسعة ، تلك الرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء .

وليس « الثالوث » الفكرة الوحيدة التي دخلت على المسيحية ، بل هناك طقوس وعبادات دخيلة على المسيحية الصافية النقية التي أتى بها عيسى . مثل قضية القربان المتمثلة في فكرة تحول الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح . يقول الاستاذ شارل جينيبير : « إن إغراء الفكر اليوناني ظل يؤثر على هؤلاء الذين كانوا قد عرفوه قبل خضوعهم للنزعة الجارفة التي جاءت بهم إلى الإيمان المسيحي . . ثم نشأت عقائد معقدة مثل : التثليث وأخرى مثل تحول الخبز والخمر بطقوس القربان إلى لحم ودم المسيح بفضل الإضافات التي أتى بها الفلاسفة » .[1]

وقد حاول شراح الأناجيل ومفسروها اعتماد بعض العبارات المديحية والشروحات لفكرتي التثليث والقربان بيد أن هذه الشروحات زادت الأمر غموضاً وتعقيداً . وهكذا بقيت هذه الفكرة إلى اليوم مصدر اضطراب النصارى في عقيدتهم هل يقبلون بألوهية

---

(١) المسيحية للأستاذ شارل جنيبير ـ أستاذ المسيحية ورئيس قسم الأديان بجامعة باريس ـ ص ١٥٥ ترجمة الشيخ عبد الحليم محمود .

غير الله ، الأمر الذي يجعلهم في عداد الوثنيين ، بحيث تبيح هذه الفكرة عبادة الإنسان للإنسان .

لا ريب أن هذه الفكرة أضرت بالعلاقة بين الإنسان وبين الله سبحانه وأبعدته عن الأسباب المقربة إليه ، فالله يغفر كل ذنب إن شاء ، إلا الشرك فإنه لا تنفع معه الطاعات ولو كانت أمثال الجبال .

وفي عصرنا الحاضر الذي فصلت فيه المناهج العلمية واستقرت ولم تعد للعبادات المديحية الخطابية وزن لم يكن للنصرانية أن تعيد عرض نفسها بأسلوب علمي مقبول ، هذا على افتراض أنه أمر ممكن ، ولا بد من الاعتقاد المقرون بالمنهج العلمي المتجرد من الأهواء والميول والتعصبات . لا بد من التحقق من صحة المعتقدات وصياغة هذا التحقيق بصياغة حديثة علمية خالية عن التأثرات الوراثية والإقليمية ، وبأسلوب نقدي علمي مجرد .

لا بد من دراسة الأسباب التي أدت إلى تراجع الكنيسة في الغرب ، واقتصار نشاطها على التبشير الذي جُعل بمثابة « تعبيد » لطرق الإستعمار ، وجسر لقوافله ، بينما لم يعد هناك أي استجابة لها عند أبنائها الذين ما زالت تصرفات الكنيسة الماضية ـ وبخاصة القرنين الثامن والتاسع عشر لا تبارح ذاكرتهم ـ حيث أعطت لنفسها طابع « الأمر الإلهي على الأرض » وأفهمت الناس أنها الكلمة التي بقيت بعد عيسى « الكلمة » ، وأن صاحب الكرسي الرسولي « البابا » أوتي العصمة من الخطأ والزلل ، ومع تعسف القرارات البابوية ووقوع بعضهم في أخطاء فادحة ـ كبيع الأراضي في الجنة المعروفة بـ « صكوك الغفران والشطط في حرمان كثيرين من دخولها وبخاصة العلماء المتأخرين الذين أحرق البابوات كثيراً منهم ـ وقد قُدمت إليهم

هذه الأخطار منسوبة إلى الأمر الإلهي الأمر الذي دفعهم إلى الإعراض عن النصرانية فأساؤا إلى حكمة الله وعدله ، وتسببوا في خروج معظم المسيحيين من المسيحية وانسلاخهم عنها باطناً وإن كانوا ما زالوا منتسبين إليها ظاهراً .

إن مثل هذه الدراسات العلمية الحديثة للتعاليم والعقائد المسيحية لم يكن مسموحاً بها من قبل . لقد ظلت الكنيسة تتجنب إلى اليوم مواجهة أصحاب البراهين والأدلة ، لسهولة تناولهم وعرضهم للمتناقضات التي انبنت عليها العقيدة المسيحية .

وقد حان الوقت لاتباع المنهج العلمي المنزه عن الميل المجرد من العواطف العصبية التي تشكل ضباباً يحجب عن العين الرؤية .

يقول الاستاذ شارل جنيبير : « لقد ظل المدخل إلى معرفة المسيحية الأولى ـ حتى منتصف القرن التاسع عشر ـ محرماً تحريماً باتاً على العلماء المنزهين عن الغرض . . وكان الرأي العام يؤمن بأن دراسة تاريخ المسيحية إنما هي الساحة التي لا يجول فيها إلا رجال الكنيسة وأهل اللاهوت » . (١)

دراسات علمية جادة :

هناك بحوث جادة كتبها نقاد وعلماء كثيرون ، أبرزها كتاب : التوراة . الانجيل . القرآن في ضوء العلم الحديث ، للدكتور موريس بوكاي ، الذي ألفه بعد دراسة طويلة أخذت من عمره ما يقارب العشر سنوات ، وفيه مقارنة لنصوص العهدين : القديم (التوراة)

---

(١) المسيحية ١٥ ترجمة الشيخ عبد الحليم محمود ط المكتبة العصرية ـ بيروت .

والجديد (الاناجيل) والقرآن في ضوء العلوم الكونية والطبية المكتشفة إلى اليوم . وهو مرجع هام لقي دوياً في الأوساط العلمية ، وتُرجم إلى عدة لغات .

ومنها كتاب المسيحية : نشأتها وتطورها ، للاستاذ شارل جنيبير وهو أستاذ الدراسات المسيحية ورئيس قسم الديانات بجامعة باريس . ذكر فيه المراحل التاريخية التي صاحبت النصرانية ، والمشاكل التي تسللت إليها عن طريق الفلسفة ومدى تأثرها بها . وحمل فيه على اولئك الذين تساهلوا في إدخال كثير من الفلاسفة المغرضين إلى المسيحية مما جعلهم يعبثون فيها ويبدلون فيها التعاليم التي جاء بها يسوع . وقد ترجم الشيخ عبد الحليم محمود هذا الكتاب إلى العربية .

ومنها كتاب الله واحد أم ثالوث للاستاذ محمد مجدي مرجان ـ مؤلف هذا الكتاب ـ الذي كان نصرانياً .

وهذه كتب نصارى قدموا خلاصة ابحاثهم عن النصرانية ـ وهناك كثير غيرهم لم أذكرهم خشية الإطالة ـ وما زالت البحوث العلمية تترى وتطلع علينا إلى اليوم .

هذا الكتاب :

ومنها هذا الكتاب « المسيح إنسان أم إله » للأستاذ محمد مجدي مرجان ، وقد اعجبني فيه الدعوة الحسنة للنصارى إلى اتباع الحق . باسلوب رقيق وطريقة قصصية تجذب القارىء إلى متابعته ، وقد شجعني ذلك على العناية به فحققته وهذبته .

ولا شك أنه أودع فيه من كتابه هذا نتاج خبراته وبحوثه في هذه

القضية ، وأوضح أموراً مهمة لا زالت تشكل على كثيرين إلى اليوم .

وكان كتابه مقارنة ومقابلة بين عرض نصوص ومصادر المسيحية لشخصية عيسى وبين عرض الاسلام لها . مبيناً دعوة الاسلام إلى التوسط وعدم الغلو فيها . وقد كانت هذه المقارنة سهلة بسيطة خالية من الاصطلاحات الفلسفية والاساليب المعقدة التي يصعب على غير المختصين إدراكها .

عملي فيه :

أما عملي في هذا الكتاب فكان على النحو الآتي :

● استبعدت منه ما لم أر ضرورة إلى بقائه كفصل : مسرات المسيح ، ومقارنة شخصيته بشخصية يحيى عليه السلام (يوحنا المعمدان الاصطلاح المسيحي) هذه المقارنة التي تركت طابعاً سيئاً عن شخصية المسيح .

وكذلك عمدت إلى حذف بعض الزيادات التي لم أر لها فائدة ، ورأيت أن بقاءها يطيل البحث من غير ما فائدة مرجوة .

● صححت الكثير من الآيات القرآنية التي كثر فيها الخطأ في أصل المؤلف ، وأحلت إلى مواضعها من القرآن الكريم .

● خرّجت الأحاديث النبوية وبيّنت درجتها .

● أشرت إلى مواضع نصوص الأناجيل بأرقامها ، وبخاصة إنجيل برنابا الذي لم يحل إليه المؤلف إلا نادراً .

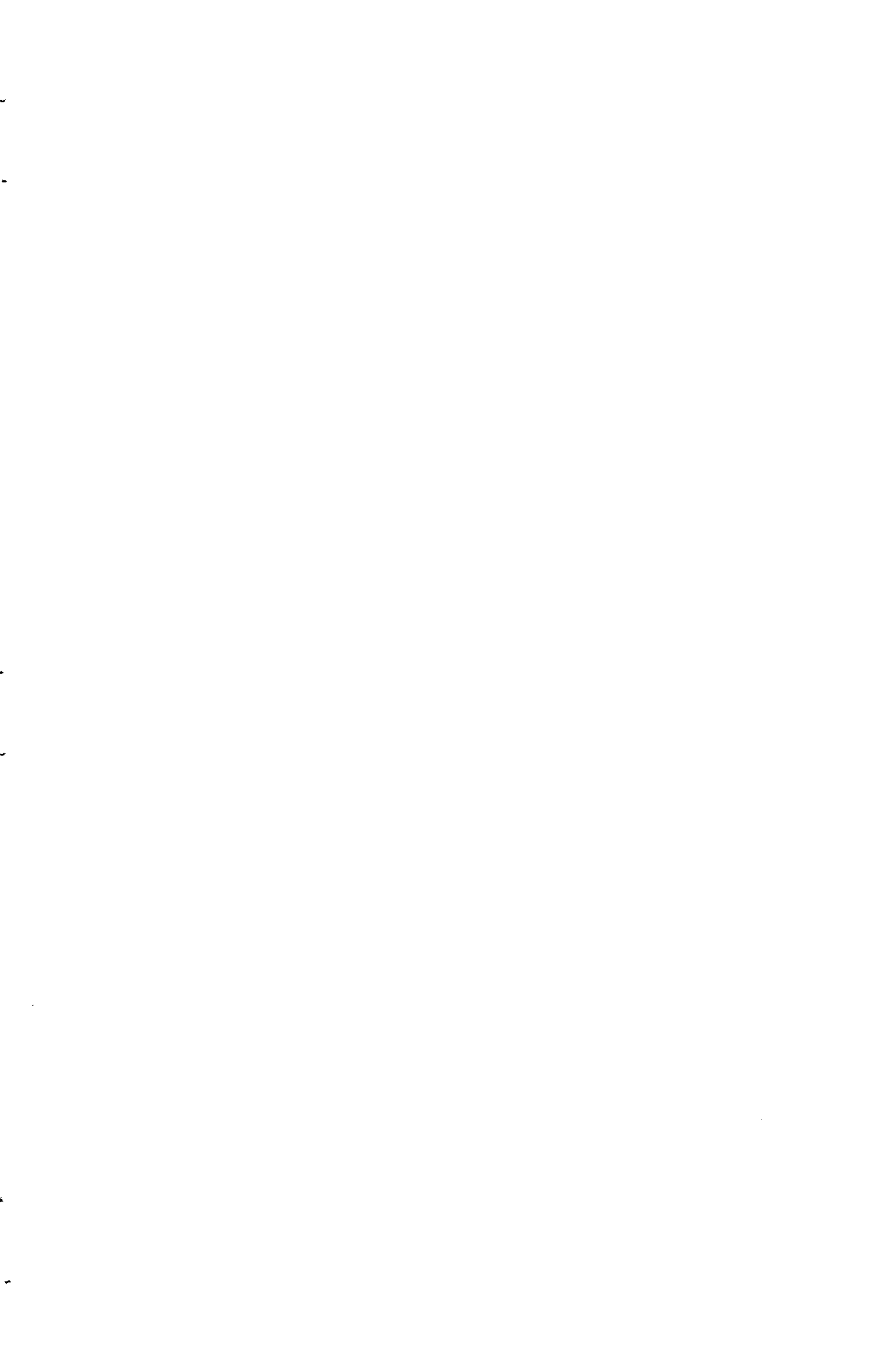
● وضعت في الهوامش بعض التعليقات التي رأيت ضرورة الوقوف عندها تارة ، واستحسان ذلك تارة أخرى ، وميزت هوامشي

عن هـوامش المؤلف بالعـلامة (*) بينـما تركت هـوامش المؤلف على حالها السابق بالأرقام .

هذا وأسأل الله العلي القدير أن ينفع بهـذا الكتاب ، وأن يجعـل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن لا يجعل لأحد فيها شيئاً .

والحمد لله رب العالمين

عبد الرحمن دمشقية



تعريف بالمؤلف

هو الأستاذ محمد مجدي مرجان كان نصرانياً من أقباط مصر نشأ في عائلة تؤمن بإلـه ثالـوثي ـ على حـد قولـه ـ وتقيم له الإبتهـالات ، وتشيـد المعابـد ، ثم التحق في مدرسـة الثـالـوث شمـاسـاً في إحـدى الكاتدرائيات ليكون أحد دعاة عقيدة الثالوث ولنترك الكـلام له حيث يقول في كتابه « الله واحد أم ثلوث » :[1] ثم [تم][2] إلحاقي تلميذاً في مـدرسة الثـالوث شمـاسـاً في إحـدى الكـاتـدرائيـات ، حيث يتم إعدادي وتوجيهي ، فأصبح داعياً لله « الثالوث » منافحاً لنشر طقـوسه وتعاليمه » .

وقد أتاح لـه ذلك فـرصة كبيـرة للإطـلاع على كثـير من العلوم الـدينية ، والأسـرار اللاهـوتية ، وبـذل جهداً كبيـراً في التحكيم بـين

---

(١) ص

(٢) أضفت هذه الكلمة لتتناسق الجملة .

تيـارين عظيمـين كانـا يتجاذبـانه ، ومن ثم انسيـاقه إلى أحـدهما ونبـذ الآخر .

التيار الأول : الايمان بالله الثالوث بحكم الوراثة والتقليد .

التيار الثاني : الايمان بالإسلام الداعي إلى إله واحد والذى فندّ هذا الثالوث وأظهر بطلانه وجعـل من توحيـد الله أحد أول أركـانه . فآثر عندئذ اتباع الحق على الاعتقـاد بطريق الـوراثة بعقيـدة لا تتقبلها الفطر السليمة ولا تستسيغها العقول الحكيمة .

وها هو يقول : « [٣] لا يكفي للايمـان الحقيقي وراثة العقيـدة ، وتقليـد الآباء والأسـلاف والعمّات والجـدات . . . ولو كـانت العقيدة إرثاً وانصياعاً لما انتقل الناس من باطل إلى حق ، ومن عبـادة الأصنام والأغنام إلى عبادة الخالق . . . .

لكن معظم الناس يرثون الدين دون وعي ولا إدراك .

معـظمنا لا يعـرف من الدين سـوى اسمه ومـا سطر في شهـادة ميـلاده : أيهودي أو بـوذي أو مسيحي أو مسلم . . . ومع ذلـك فإنـه يتعصب لما سطر في شهادة ميلاده تعصب المستميت » .

وبعـد هذا التجـرد الذي يـظهر عـلى المؤلف من خلال كلمـاته هذه ، هداه الله تعالى إلى الحق وعافاه ممن أبتلي بـه كثيرون من آفـات التعصب ومذامّه .

وللأستاذ محمد مجدي خبرة واسعة في ديانته السـابقة فقـد كانت لـه حـوارات ومنـاقشـات عـديـدة مـع الأهـل والأقـارب وحتى مع

---

(٣) نفس المصدر ٧

القساوسة ، وذلك بعد تحوله إلى الإسلام . وكان قد أشار إلى ذلك في كتابه القيم « الله واحد أم ثالوث » حينما تحدث عن صعوبة فهم الثالوث واستحالة تقبلها حيث قال :

« ولقد قمت بنفسي بمناقشة كثير من الإخوة المسيحيين في مدى فهمهم وتقبلهم لهذه العقيدة ، تارةً حين كنت محسوباً في الجماعة المسيحية ، وتارةً بعد انسلاخي عنها .

وكثير من هؤلاء المسيحيين أصدقاء وأقارب يولون ثقتهم ، ويصدقوني الحديث . فأخبروني أنهم لا يستطيعون فهم كنه الثالوث المقدّس ، وأن كثيرين منهم يعيشون في صراعٍ بين عقولهم وموروث معتقداتهم .

وحين تناقشت في ذلك مع بعض الآباء الكهنة أخبروني أنه يجب الإيمان بالثالوث دون أي تمحيص أو تفكير ، وأنه يلزم التسليم بهذا الاعتقاد الثالوثي تسليماً مطلقاً أي تسليماً أعمى . فعلى المسيحي أن يؤمن ويعتقد أولاً في الثالوث المقدس ثم يمكنه أن يجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقد ، فإذا لم يفلح في ذلك فإنه خير له أن يلغي عقله ولا يلغي عقائد الآباء وتراث الأجداد وتعاليم القسوس » .

ويعلق الأخ محمد مجدي مرجان قائلاً :

« والحقيقة أن هذا الذي يدعو إليه آباؤنا الكهنة ويبغون قسرنا عليه شيء عجيب ، فكيف يستطيع الإنسان منا أن يلغي عقله الذي لا يعيش إلا بهديه والذي يفضّله على العيش نفسه ؟؟

إن الأخ المسيحي في محاولته فهم عقيدة الثالوث إنما يصارع كل عقل وفكر ومنطق ، وفي خضم هذا الصراع بين منطق عقله وموروث

اعتقاده قد يصل به الأمر إلى الإلحاد » .[1]

« إنه يبدو أن أصحاب الثالوث لا يؤمنون بالعقل ، ولا برسالات السماء ، ولا بأقوال الأنبياء ، وإلا لما أصروا على اعتقادهم رغم مناقضته لكل ذلك » .[2]

ويقول بعد إسلامه في مؤخرة هذا الكتاب الذي بين يديك :

« ولدت لأعبد المسيح ولأرفعه إلهاً فوق الآلهة ، فلما شببت شككت ، فبحثت عن الحقيقة ، ونقّبت فعرفت .

وناداني المسيح :

يا عبد الله ، أنا بشر مثلك ، فلا تشرك بالخالق وتعبد المخلوق . ولكن اقتدِ بي ، واعبده معي ، ودعنا نبتهل له سويّاً :

« « أبانا وإلهنا ، حمدك وسبحانك رب العالمين . إياك نعبد وإياك نستعين .

يا عبد الله أنا وأنت وباقي الناس عبيد الرحمن .

قال المؤلف :

« فآمن بالله ، وصدّقت المسيح ، وكفرت بالآلهة المصنوعة » .

وهو موقف شجاع من المؤلف . وكم نحن في حاجة إلى مثله من كثير من النصارى الذي يعلمون تمام العلم بالانحرافات والاختلافات والتناقضات ، ثم يمنعهم خوفهم من التصريح بكلمة الحق والثبات عليها .

---

(١) كتاب : الله واحد أم ثالوث ٧٣

(١) ن . م٥٥

إن مثل هذه المواقف وإن كانت ستجر عليهم بعض المتاعب من المخلوقين ، فإن جزاء الصبر عليها الثواب والأجر العظيم من الخالق ، وهل هناك للمقارنة بين عذاب الخالق وتعذيب المخلوقين ، وبين ثوابه وثوابهم ؟

أليست بعض المتاعب في الدنيا خير من شقاء الدنيا والآخرة ؟

نصيحة :

وكم أود أن أذكّر كل قارىء ـ بهذه المناسبة ـ أن ينزع عنه جانب التعصب للآراء والمبادىء الموروثة ، وأن يتجزد للحق . لأن التعصب باطل ، والباطل يصد عن إدراك الحقيقة .

وأعلم أن دين الله ليس مالاً أو أرضاً يتوارها الإبن عن أبيه . وإنما هو دين الله الذي يهتدي إليه أقوام ويضل عنه آخرون ، ولست تدري لعل أبويك ممن ضلوا الطريق إليه وسلكوا آخر ، فتكمل عنهم هذا الطريق حتى إذا بلغت نهايتها تبين لك أن آخرها إلى الجحيم ، فتندم ولكن لا تنفع الندامة ، لأن تلك الطريق لا سبيل إلى الرجوع عنها ، والاختبار من الله لا يتكرر .

وأعلم أن والديك لم يكونا نبيّينْ ، وإنما كانا بشرين ممن يجوز أن يخطئوا ويجوز أن يصيبوا ، فانظر إلى ما كانا عليه وتحقق من ذلك .

فإن وجدتهما على غير طريق الحق ، فابحث عن الحق الذي لا بد وأن يكون على الأرض . واختره على ما دونه من المذاهب الباطلة .

وكن على ثقة أن مصيرك في الآخرة مرهون بهذا الإختيار الذي

تختاره في الدنيا . إن كان الإختيار حسناً فالجنة وحسنت مصيراً . وإن ساء اختيارك فجهنم وساء مصيراً .

وفي الخاتمة نسأل الله الهداية والتوفيق والسداد كما نسأله أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه .

عبد الرحمن دمشقية

١٨ ـ محرم ـ ١٤٠٦ هـ

باسمك اللهم

مقدمة

لم يختلف الناس حول شخصية في التاريخ قدر اختلافهم حول عيسى الملقب بالمسيح، ولم يتناحر الناس بسبب إنسان في الوجود قدر تناحرهم بسبب عيسى ابن الإنسان[1]، ولم يتقاتل الناس لشيء في الدنيا قدر تقاتلهم من أجل عيسى ابن الله[*].

إختلف الناس وتناحروا وتنابذوا، وكان اختلافهم بيننا وتناحرهم شرساً وتنابذهم عميقاً. وصل في أحد حديه إلى إنكار وجود عيسى في التاريخ واعتباره مجرد أسطورة خيالية حاكتها أحلام الواهمين.

---

(١) قصة الحضارة جـ ٣ ـ ترجمة محمد بدران ص ٢٠٢

* أي الفئة الأخرى من المختلفين القائلين ببنوته لله عز وجل. وللمؤلف مناقشة طيبة فيما يتعلق بهذا اللفظ في موضعٍ لاحق.

يقول ول ديورانت: «هل وجد المسيح حقاً؟ أو أن قصة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية وخيالها وآمالها أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا وأوزريس وأدونيس وديونيشس ومثراس؟».

ثم وصل الخلاف في حده الآخر إلى اعتبار عيسى إله الكون ورب الوجود.

«أنا هو الطريق والحق والحياة، من آمن بي ولو مات فسيحيا»(*).

وبين هؤلاء وهؤلاء، بين المكذبين والمؤلهين، آلاف الملايين من الناس على مر العصور، وقفوا بين الحدين، مقتربين ومبتعدين، مكبرين ومستعينين، محبين وكارهين، مادحين وقادحين، منصفين ومغرضين.

رفعه بعضهم إلى مرتبة الآلهة ثم اختلفوا حول طبيعته الالهية هل هو إله خالص، أم شخصية مزدوجة نصفها إله ونصفها إنسان؟ وهل هو ذات الله أم ابن الله أم بعض الله؟ واقترب به بعضهم إلى درجة أدنى من الملائكة، وساواه بعضهم بالملائكة، وارتفع به آخرون إلى مرتبة أعلى من الملائكة.

قال البعض إنه إنسان، ثم دب بين هؤلاء البعض الخلاف: هل هو نبي أم إنسان عادي؟ وهل كان صالحاً أم فاسداً، باراً أم

(*) في الأصل: «أنا هو القيامة والحياة...» يوحنا ١١: ٢٥

شـريراً ، طيبـاً أم مشعوذاً ، صـادقاً أم كـاذباً ، عـاقـلاً أم مجنـونـاً ، عبد الله أم حليفاً للشيطان ؟.

هل كان عيسى هو « المسيح » حقـاً ، أم هو « الكلمـة » أم هو « النـاصري » ـ أم « ابن داود » وهـل ولد حقـاً من عـذراء كـما يقـول البعض ، أم حمـل به سفـاح كما يـدعي الآخرون ، وهـل ذبح عيسى حقاً على الصليب أم صلب عنه آخر ؟ ولماذا صلب هذا أو ذاك ؟ أمن أجل الخطيئة الأولى فعلاً ، أم من أجل ذنب ارتكبه هو ؟

خلافـات ومشاحنـات وادعـاءات وتكذيبـات حـولـت الرسـالـة المسيحية السامية إلى شتات وشذرات، وأوجدت الفرقة والانقسام بين أتباع الدين الواحد وعباد الله الواحد فتفرقوا مذاهب شتى وطوائف متعددة كل منها ترى المسيح عيسى من الجانب الذي يروقها، وكل منها ينظر إليه من الوجهة التي يراها، وكل منها يصوره على الصورة التي يبتغيها.

خلافات ومشاحنات تعدت المناقشة والمجادلة إلى الدس والوقيعة بل إلى القتال العلني وإقامة المذابح بين أصحاب هذه النحل المختلفة. تقاتل أحباء عيسى وتقاطع أعداؤه حول طبيعته وكيانه، وحول نفسيته وخصاله وعيسى نفسه بريء من كل هذه التـوهمات أتى ليـدعوهم إلى السـلام والمحبـة، وإلى التـآلف والـرحمة فحملوا السيف إرضـاء لشهواتهم ومصـالحهم وظلموا عيسى وتعاليمه.

وفي هـذا الكتاب محـاولـة للتنقيب عن حقيقـة المسيـح عيسى، في عرض لمختلف الآراء والنظريات التي اختلفت حوله، علنا نلقي قبساً من الضوء على هذه الشخصية التي حيرت الناس في مختلف الأزمان والبقاع، والله يوفقنا إلى الهدى والحق.

محمد مجدي مرجان

الفصل الأول

مولد المخلص



الشعب المقدس:

بنو إسرائيل، شعب الله المختار، اختارهم شعباً خاصاً له دون سائر الشعوب، خلق العالم كله من أجلهم، وخلق باقي الأمم لخدمتهم، هم وحدهم الناس والباقون عبيد وخدم وكلاب وخنازير(*)..

يقول يهوه إله إسرائيل لشعبه المختار: «وأنتم تكونون لي مملكة أحبار وشعباً مقدساً» (خروج ١٩/٦).

ويقول لهم موصياً: «مباركاً تكون فوق جميع الشعوب..

---

* هكذا يقولون ويزيدون على ذلك: «الأمميون» (أي الأمم غير اليهودية) هم الحمير سخرهم الله لخدمة شعبه المختار كلما نفق منهم حمار ركبوا آخر!!

وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك، لا تشفق عيناك عليهم» (تثنية ص ٧: ١٤، ١٦).

وفدوا إلى أرض العرب الكنعانيين ونازعوا أهلها ديارهم واغتصبوا أراضيهم ثم تضخمت أحلامهم المسعورة لامتلاك الأراضي المجاورة وإبادة أصحابها العرب فأنطقوا إلههم بما تراءى لخيالهم المريض «إن ملاكي يسير أمامك ويجيء بك إلى الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والجويين واللبوسيين فأبيدهم.. أرسل هيبتي وأزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم وأعطيك جميع أعدائك مدبرين.. وأجعل تخومك من بحر سوف إلى بحر فلسطين ومن البرية إلى النهر، فإني أدفع إلى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك» (خروج ٢٣: ٢٣ - ٣١).

وتتحدث التوراة عن الحروب التي أمر بشنها الرب يهوه، القاسي المتكبر، لإبادة الشعوب المجاورة وسلب أملاكها، تقول التوراة عن إحدى هذه المذابح التي ارتكبها الشعب المقدس بأمر إلهه: «فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر، وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم.. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم، وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار، وأخذوا كل الغنيمة، وكل النهب من الناس والبهائم» (عدد ص ٣١: ٧-١١).

وما فعلوه مع مديان، فعلوه مع شعوب كثيرة، سلب ونهب، وقتل وذبح، وهتك حرمات وانتهاك مقدسات، كل ذلك بأمر الله!!

ولكن يبدو أن أصحاب البلاد الأصليين وخاصة الفلسطينيين لم يصبروا على هذا العنت، فقد استطاعوا بعد صراع مرير أن ينتصروا على أبناء صهيون، وأن يستردوا منهم بعض ما اغتصبوه وأن يستعيدوا بعض كرامتهم وإنسانيتهم، وأن يذيقوا سفاحي الشعوب بضع قطرات من الكأس التي أسقوهم إياها من قبل.. هنا علا صراخ الشعب المختار وارتفع عويلهم ونحيبهم يستنجدون بيهوه أن يرسل إليهم مسيحاً يخلصهم من أيدي الفلسطينيين ويعيد إليهم جبروتهم وتسلطهم.

المسيح شاول:

وينتظر اليهود طويلاً مجيء المخلص، حتى يظهر شاول من سلالة بنيامين أصغر أبناء يعقوب (اسرائيل) الاثني عشر فيقود اليهود في حروبهم الاستعمارية ويحرز لهم انتصارات رخيصة فيسمونه المسيح المخلص، وتقول التوراة إن الله أرسل صموئيل الكاهن ليمسح شاول ملكاً على اليهود ومخلصاً لهم من الفلسطينيين، يقول يهوه لصموئيل: «غداً في مثل الآن أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين: فأمسحه رئيساً لشعبي إسرائيل فيخلص شعبي من يد الفلسطينيين، لأني نظرت إلى شعبي لأن صراخهم قد جاء إلي» وتستطرد التوراة «فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأس (شاول) وقبله وقال أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً»[1].

وهكذا صار شاول ملكاً لليهود ومسيحاً مخلصاً لشعب إسرائيل.

---

(١) صموئيل الأول ص ٩ : ١٥ ـ ١٦ ، ص ١٠ : ١

لقب المسيح:

ولكن من أين جاءت هذه التسمية؟ ولماذا دعي شاول أو غيره بلقب المسيح؟ وما الذي يعنيه هذا اللقب؟

الواقع أن هذا اللقب يرجع إلى الشعائر التي درجت عليها الأمة اليهودية منذ أجيالهم الأولى، بل منذ أبيهم الأول يعقوب الذي سمي «إسرائيل» والذي من صلبه خرج جميع الأسباط الاثني عشر الذين تكون منهم ومن أبنائهم يهود الدنيا، فمنذ عهد يعقوب «إسرائيل» اعتبر المسح بالزيت المقدس من أعظم شعائر التقديس والتكريم للناس وللأماكن، فكل ما يمسح بهذا الزيت يصير مقدساً لله، ولا يمسح بهذا الزيت المقدس من الناس سوى الكهنة والملوك والأنبياء، لذلك سمي هؤلاء مسحاء الله أي المختارين والمباركين من الله، يروي سفر التكوين عن يعقوب أنه «بكر في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً، وصب زيتاً على رأسه، ودعا ذلك المكان بيت إيل.. أي بيت الله»[1].

ويستطرد يهوه مذكراً شعبه بقيمة هذا الزيت الذي لا يمسح به سوى المباركين من الكهنة والملوك والأنبياء، محذراً إياهم من محاولة تقليده أو مسح الأجانب الأنجاس به، يقول يهوه: «يكون هذا لي دهناً مقدساً للمسحة في أجيالكم، على جسد إنسان لا يسكب، وعلى مقاديره لا تصنعوا مثله، مقدس هو ويكون مقدساً

---

(١) تكوين ص ٢٨

عندكم، كل من ركب مثله ومن جعل على أجنبي يقطع من شعبه»[1].

المسيح هارون :

وبعد أن تم صنع الزيت المقدس أمر الله نبيه موسى بأن يمسح به الهيكل والمذبح لتقديسهما ثم أمره بأن يمسح به شقيقه هارون مسيحاً مقدساً للرب، وفعل موسى حسبما أمره الله. . أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن وكل ما فيه وقدسه، ونضح منه على المذبح سبع مرات ومسح المذبح وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها لتقديسها، وصب من دهن المسحة على رأس هارون ومسحه لتقديسه[2].

.المسيح اليشع :

ويأتي بعد ذلك إيليا فيأمره ربه بأن يمسح من بعده اليشع نبياً على بني إسرائيل، يقول سفر الملوك على لسان الله لايليا، «وامسح اليشع بن شافاط. . نبياً عوضاً عنك»[3].

ثم يتوالى بعد ذلك المسحاء في تاريخ الشعب المقدس.

رأينا شاول أحد المسحاء الرواد يسمى مسيح الرب فهو المسيح المخلص الذي خلص إسرائيل من أيدي الفلسطينيين ، المسيح المبارك . الذي لا يمسه أحد بسوء ، والذي لا يتجرأ أحد على إيذائه ، يقول داود لرجاله محذراً إياهم من التعرض للمسيح شاول

---

(١) خروج ٣٠ : ٢٢ ـ ٣٧

(٢) لاويين ص ٨ : ١٠ ـ ١٢

(٣) ملوك ١ : ص ١٩

« حاشا لي من قبل الرب أن أعمل هذا الأمـر بسيدي المسيـح الرب ، فأمد يدي إليه لأنه مسيح الرب هو » .

وحين تملك أحد رجال داود من رقبة المسيح شاول وأراد قتله منعه داود قائلاً «لا تهلكه فمن ذا الذي يمدّ يده إلى مسيح الرب ويتبرأ»[1].

هكذا كانت عقيدة اليهود في المسيح، المختار من الله، والمبارك من السماء، منقذ إسرائيل ومخلص الشعب المقدس، لا يمسه أحد بضر، ولا يقربه أحد بأذى، يقول يهوه لشعبه «لا تمسوا مسحائي ، ولا تؤذوا أنبيائي» [2].

المسيح داود:

وبعد موت شاول «جاء جميع شيوخ إسرائيل. . ومسحوا داود ملكاً على إسرائيـل»[3] ويترنم المسيـح داود سعيداً بجعله ماركاً من الله ، مختاراً لخلاص شعبه، والانتصار على أعدائهم. «الرب عزي وترسي ، عليه اتكل قلبي فانتصرت، ويبتهج قلبي وبأغنيتي أحمده. الرب عزلهم وحصن خلاص مسيحه هو، خلص شعبـك وبارك ميـراثك، وارعهم واحملهم إلى الأبـد»[4] «برج خلاص لملكه والصانع رحمة لمسيحه، لداود ونسله إلى الأبد» (مزمور ١٩) .

ويقول عن نفسه أيضاً. . «أحببت البر وأبغضت الاثم، من

---

(١) صموئيل الأول ص ٢٤ : ٦ ـ ٨ ، ص ٢٦ : ٩
(٢) أخبار الأيام الأول ص ١٦ : ٢٢
(٣) صموئيل الثاني ص ٥ : ٤
(٤) مزمور ٢٨ : ٧ ـ ٩

أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك» (مزمور ٤٥ : ٧).

وينادي داود ربه في الحروب ويطلب منه النصر. . يا رب إله الجنود، إسمع صلاتي وأصغ يا إله يعقوب، يا مجننا أنظر يا الله والتفت إلى وجه مسيحك[١].

فإذا ما حاقت به الهزيمة في إحدى المواقع، نادى داود ربه معاتباً إياه على غضبه عليه[*]: «إنك رفضت ورذلت، غضبت على مسيحك»[٢].

---

(١) مزمور ٨٤ : ٨ ـ ٩

* وهذا العتاب المنسوب إلى داود عليه السلام لا سبيل إلى تصديقه مطلقاً ، فالأنبياء يضرب بهم المثل في الأدب مع الله وفي الرضا عنه في شتى الأحوال والشدائد .
ومعروف عن التوراة جرأة مدونيها ومحرفيها على أنبياء الله وسبهم إياهم ورميهم له بالمكر والخديعة والسرقة وارتكاب الفواحش .
كقولهم بأن لوط عليه السلام زنى بابنتيه ثم حبلتا منه (تكوين ١٩ : ٣٠ ـ ٣٨) . وأن سليمان عليه السلام ارتد عن دين الله ونبذ الرسالة التي كلفه بها ورجع عن ذلك كله إلى عبادة الأوثان والأصنام (الملوك الأول ١١ : ٥ ـ ١١) .
وأن هرون ـ أخا موسى عليهما السلام ـ هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل ليعبدوه ، وأنه هو الذي حثهم على سرقة الحلي والجواهر من المصريين (خروج ٣٢ : ١ ـ ٦) .
وأن داود عليه السلام رأى امرأة عارية تستحم فأرسل في طلبها وفعل فيها الفاحشة ثم عمد إلى إرسال زوجها إلى الحرب ليقتل هناك (صموئيل الثاني ١١ : ٢ ـ ٢١) إلى غير ذلك من الأخبار الواجب تكذيبها وإن كنا لا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم ، لأننا نقطع بسمو الأنبياء ونزاهتهم عن أن يهبطوا إلى هذه المستويات التي يتنزه عنها الكثير ممن ليسوا بأنبياء .

(٢) مزمور ٨٩ : ٣٨

وفي الشدائد يرفع داود وجهه إلى الله طالباً منه الاستجابة لتوسلاته: «أيها الرب الإله لا ترد وجه مسيحك» (أخبار الأيام الثاني ص ٦: ٤٢).

المسيح سليمان:

وبعد موت المسيح داود، أتى ابنه المسيح سليمان ملكاً على اليهود، يحدثنا كتاب الملوك الأول عن كيفية مسح سليمان: «فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحيى الملك سليمان»[1].

وفي عهد داود وإبنه سليمان عاشت إسرائيل عصرها الذهبي وازدهرت إزدهاراً لم يسبق له مثيل، ودخلت كثير من البلاد في طاعتها، وتسابق الملوك والأمم في خطب ودها، تقول التوراة: «وكان سليمان متسلطاً على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر»[2].

وفي عهد سليمان بني هيكل الرب وكان معظمه من الذهب الخالص والأحجار الكريمة.

عقيدة المخلص

ويبدو أن دوام الحال من المحال، أو أن يهوه قد نسبي وعده لشعبه المختار بابقائه متسلطاً على البلدان المجاورة مستعبداً

---

(١) ملوك الأول ص ١ : ٣٩

(٢) ملوك الأول ص ٤ : ٣١

شعوبها مستنزفاً خيراتها، أو يبدو أن إله الشعوب المجاورة قد أراد أن ينتقم من شعب يهوه وأن يذيقه بعض ما ذاقت شعوبه على يديه من الذلة والخسران، فقد ذهب داود وسليمان وحل بعدهم على اليهود الهوان، وهاجم بختنصر ملك بابل - العراق الآن - إسرائيل في عام ٥٨٦ ق. م. وجاس خلال فلسطين، ودخل أورشليم وحمل اليهود سبايا إلى بلاده.

ونترك للأستاذ الأديب السحار وصف ما حل بالشعب المختار على يد ملك بابل:

«اندفعت عربات بابل الحربية في طرقات أورشليم كالسهم، وانقضت على بني إسرائيل انقضاض الصواعق، ودارت في الشوارع المؤدية إلى هيكل سليمان معارك بالسيوف والسهام، ولما كانت قلوب بني إسرائيل هواء قد طار منها الإيمان فقد خر الرجال أسرى أو لاذوا بالفرار. وسقطت المدينة الحصينة في قبضة بختنصر، فأحرق الهيكل وجمع التوراة وأشعل فيها النيران بعد أن غنم كل ما كان في بيت المقدس، واحتمل معه سبايا بني إسرائيل. وزحف جيش بختنصر على مملكة يهوذا، ودار القتال في السامرة بين أهل بابل واليهود، وسرعان ما خرت اليهود ساجدة تحت أقدام ملك الكلدانيين، ونظر بختنصر إلى سبايا بني إسرائيل وشرد يفكر، ثم أمر أن يجعلوا ثلاث فرق، فلما تم تقسيمهم أقر ثلثاً بالشام وثلثاً سبي وثلثاً أعمل فيهم القتل، وانطلق بالغنائم والأسرى إلى بابل»[١].

---

(١) عبد الحميد جودة السحار، وعد الله وإسرائيل ص ٢٢ - ٢٣

ويغلب أن هذا الانكسار المخزي قد أطار ما بقي لليهود من ذرات العقل، وجدد أحلامهم وأوهامهم في المسيح المخلص، الذي يرسله الرب لتخليصهم من ربقة العبودية، وينقذهم من مذلة الاسترقاق. ويعيدهم إلى المدينة المقدسة «أورشليم» فليس من الممكن أن يتركهم يهوه هكذا عبيداً أذلاء للبابليين، بل لابد أن يرسل إليهم مسيحاً يخلصهم من أعدائهم، ويستعيدون به أمجادهم.. وكثرت الأقاويل والنبوءات والأساطير والأشعار حول هذا المسيح المخلص، شكله وأوصافه، سلالته وأعماله، وقت مجيئه، وطريقة عمله، كيفية انتصاره.. وغير ذلك من سجاياه.. أقاويل وأساطير نبوءات وأحاجي، نسج الخيال لحمتها وسداها وحاك الضيق خيوطها وسواها.

المسيح الكافر:

وطال باليهود العذاب والانتظار لمجيء المخلص إلى أن أتى كورش المجوسي ملك الفرس - إيران حالياً - ومؤسس الامبراطورية الساسانية في فارس فحارب البابليين وهزمهم وفك أسرى اليهود في بابل. وسمح لهم بالعودة إلى القدس وإعادة بناء هيكل الله، فهلل اليهود بالفرح وعمتهم الغبطةوالحبور، واعتقدوا أن كورش الوثني هو المسيح المخلص الذي أرسله يهوه لانقاذهم من أيدي البابليين، فأطلقوا عليه لقب المسيح، فهو مسيح الله الذي أمسك الرب بيمينه ليدوس به الأمم ويحطم الملوك، يقول نبيهم أشعياء عن المسيح كورش: «هكذا يقول الرب لمسيحه

لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس به أمما وأحقاء ملوك، لأفتح أمامه المصراعين والأبواب المغلقة»[1].

وما هي إلا فترة ينعم فيها اليهود بشيء من الرخاء والحرية، وقبل أن يستبد بهم شيطان الغرور والتسلط، يدهمهم سلطان الامبراطورية الرومانية الزاحف، فيفتح الغزاة بلادهم ويطوونها تحتهم مستعمرة رومانية ضئيلة يقطعون أوصالها أجزاء وأشلاء، يمنحونها لقوادهم وضباطهم إقطاعيات صغيرة يتحكمون في أرضها وأهلها، يقتلون الرجال ويستحيون النساء، ويحسبون على الناس كلماتهم وألفاظهم، وحركاتهم وسكناتهم، بل يعدون عليهم الأنفاس والخلجات. يروي فالتون أوسلر جانباً من الصورة التي كان يعيشها اليهود أثناء حكم الرومان «كان الخطر حقيقياً فإن جواسيس الرومان منتشرون في كل مكان، ومن الجنون المطبق أن يتناقش الناس في الشؤون السياسية، فقد طالما ساق جنود الرومان المتحدثين إلى العذاب والموت، حتى تعلم الناس ألا يعلنوا آراءهم أبداً، وقد اندلعت في القرن الأخير ثورات كبيرة، ولا يزال من المواطنين مئات يعيشون في جبال الجليل وتلاله ليتصيدوا الرومان حيثما استطاعوا، ثم لم تبرح الأمة تدفع ثمن كل هذا غالياً، فكم من خيرة الشبان لاقوا حتفهم في تلك الثورات الهزيلة المقضي عليها مقدماً وكم أعدم الرومان آلافاً ليكونوا عبرة لغيرهم، حتى أقفرت البلاد من شبانها، ومع ذلك فلا يزال الرومان هناك، ليس في الجليل وحده حيث الناصرة أكبر بلد،

---

(١) أشعياء ص ٤٥ : ١ .

ولكن في اليهودية وفي «أورشليم» العاصمة الـذهبية وفي كـل الإقليم الواسع الذي عرف أمجاد «يوشع» وقوة «داود» وحكمـة «سليمان» وأبهْته، إنـه الآن يدفـع الجزيـة صاغـراً للامبـراطور «أوغسطس قيصر»[1].

المسيح عيسى :

وهكذا تجددت باليهود الأحلام والأوهام في ظهور مسيح جديد يخلصهم من ربقة الرومان ويعيد إليهم حريتهم ومجدهم الغابر، ويحقق لهم وعد إلههم يهوه بجعلهم العنصر المميز بين والشعوب ،وبإقامة الامبراطورية الأرضية التي عاصمتها أورشليم، وبتسخير باقي شعوب الأرض لخدمتهم.

تجددت باليهود الأحلام والأوهام ،وكثرت الأقاويل والتكهنات وتعددت الأساطيـر والأقاصيص عن هـذا المسيح المخلص[*]، بعضها يصوره ملكاً من كبار الملوك الغـابرين قـام من الموت ليخلص شعبه كالملك داود أو حزقيا أو يهو شافـاط، وبعضها يصوره نبياً من الأنبياء كالنبي إيليا أو اليشع بعث من موته لخلاص

(١) فالتون أورسلر « الإنسان الخالد » ترجمة رمسيس جبراوي ص ١٣

* وحول لقب « المسيح » و « ابن الله » تقول فرنسيس يونغ المحاضرة في دراسات العهد الجديد بجامعة (برمنغهام) : « إن هذه الألقاب والأفكار كانت موجودة قبل أن يتبناها المسيحيون الأوائل ، وقد حملتْ هذه الألقاب والأفكار مضامين جديدة بتطبيقها على يسوع . ويبدو من المحتمل أنه كان للمجتمع اليهودي آمال متنوعة سياسية ووطنية « وتنبئية » وعجائبية علوية غير متوافقة .. بعضها متداخل أحياناً ، وبعضها الآخر واضح المعالم والشيء الجدير بالملاحظة هو أن العهد الجديـد (الأناجيل) يعكس نوعاً من الإضطرارية لرؤية كل التوقعات الممكنة ، وقد أُنجزت في يسوع » . (عن مجلة الأمة العدد ٤) .

شعبه، وبعضها يراه من سلالة داود، وآخرون وآخرون. . . . .

يقول الأستاذ فتحي عثمان: «كان الشعور العام ينتظر ظهور «المسيح» من نسل داود كقائد شعبي كبير يستخدم المعجزات والخوارق للانتصار على الأعداء، وكان البعض ينتظر من «المسيح» صراعاً دموياً. . وجاءت كتابات «الرؤى الرمزية» تعكس هذه المشاعر والآلام، لقد كتبت لتشجع قوماً في شدة الضيق والمتاعب فهي تصور لاحلامهم قضاء قريباً سريعاً على الشر، وسعادة ومجداً للمؤمنين[1].

كانت أكثر الأحاجي انتشاراً في ذلك الوقت أن المسيح المخلص سوف يأتي من ذرية داود وينتصر انتصاراً سريعاً حاسماً على الأعداء، ويحرر إسرائيل ويتخذ أورشليم عاصمة لملكه، ويضم الناس جميعاً تحت لواء سلطانه، ليؤمنوا بيهوه وبالشريعة اليهودية.

وهنا يثور التساؤل. . لماذا يأتي المسيح المنتظر من نسل داود بالذات؟ والجواب أن اليهود ما زالوا يتراقص أمام أعينهم العصر الذهبي الذي عاشوه أيام داود وسليمان، حين تعاظم داود وسليمان على كل ملوك الأرض في الغنى والقوة وحين كانت الأرض كلها ملتمسة وجه داود وسليمان، وحين خضعت لليهود الأمم والشعوب، ودانت لهم الجباه والرقاب، بل ما زال اليهود يذكرون وعد يهوه للمسيح داود بأن يثبت كرسي مملكته إلى الأبد، مبقياً سلالته ملوكاً على عرش إسرائيل، يقول كتاب

---

(١) فتحي عثمان: مع المسيح في الأناجيل الأربعة ص٦٠.

صموئيل الثاني عن داود: «هكذا قال رب الجنود: أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيساً على شعبي إسرائيل وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جيمع أعدائك من أمامك وجعلت لك اسماً عظيماً كاسم العظماء الذين في الأرض، وعينت مكاناً لشعبي إسرائيل وغرسته فسكن مكانه ولا يضطرب بعد.. والرب يخبرك أن الرب يصنع لك بيتاً متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك، أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك وأثبت مملكته، هو يبني بيتاً لاسمي وأنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبد»[1].

ويؤكد يهوه لسليمان وعده الذي وعد به داود أباه: «إني أقيم كرسي ملكك على إسرائيل إلى الأبد وكما كلمت داود أباك قائلاً: لا يعدم لك رجل عن كرسي إسرائيل»[2].

هكذا كان حال اليهود، كلما حلت ببلادهم المتاعب، وصادفتهم الأهوال، واستباحهم الغزاة واستعبدهم الفاتحون، كانوا يستصرخون يهوه أن يرفع عنهم العذاب، ويزيل عنهم المذلة ويبعث إليهم بطلاً مغواراً، ومسيحاً مختاراً، يخلصهم من أعدائهم، ويرد إليهم شوكتهم ومنعتهم.

والواقع أن هذه الأحلام والآمال التي كانت تراود اليهود في أوقات الضيق كانت ترددها أيضاً معظم الديانات الغابرة، وكانت تراود معظم الشعوب القديمة، خاصة في أوقات الكوارث والنكبات،

---

(١) صموئيل الثاني ص ٧ : ٨ـ ١٣

(٢) ملوك الأول ص ٩ : ٣ ـ ٥

فهي وسيلتهم للتنفيس عما يعانونه من الكروب والضيقات، وهي أملهم في النجاة والفرج ينسجونها أساطير تخفف من ألم الواقع، وأوهاماً تلطف من قسوة الحقيقة، وأحلاماً ترطب من لهيب الظروف.

يقول الأستاذ العقاد: «.. يدل علم المقارنة بين الأديان على شيوع الإيمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص في زمن مقبل. وظهر من عقائد القبائل الحمر في القارة الأميركية أن القبائل التي تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة في الأمريكتين، وليس في هذا عجب، لأن الرجاء في الخير أصل من أصول الديانة، والأمل في الصلاح مادة من مواد الحياة الانسانية في طلب الكمال والخلاص من العيوب، وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة إليه، فكان المصريون الأوائل يترقبون المخلص المنقذ بعد زوال الدولة القديمة.. وكان البابليون يؤمنون بعودة مردخ إلى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ينبعث في جسد إنسان»[١].

ويعترف الكاتب الأميركي فالتون أورسلر أن فكرة المسيح المخلص ما هي إلا اسطورة يهودية ترددها معظم الشعوب القديمة، فيورد هذه الحقيقة على لسان صموئيل أحد أبطال قصته رداً على يوسف النجار زوج مريم «ألا ترى يا يوسف أن هذا كله ما هو إلا أسطورة قديمة رويت بكل اللغات، وتعلمها كل

---

(١) عباس العقاد: حياة المسيح ص ٢٨

الديانات السخيفة، وقد يصح القول أنك تتكلم عن الهندوس في الهند، أو عن الإيرانيين في فارس أو عن اليونانيين.. ألا ترى أنك قد أسست قرارك على قصة خرافية، أنك تؤمن بخرافة عالمية»[1].

كان صموئيل هذا يدعو يوسف النجار إلى المشاركة في تحرير بلاده وإلى الانضمام إلى جماعة من الثوار يحاربون الرومان، ويخلصون اليهودية من مهانة الاستعباد، ولكن يوسف كان يؤمن بالخرافة العالمية، أن الله سيرسل إليهم مسيحاً مخلصاً يقضي على الرومان ويعيد إلى إسرائيل مجدها وسؤددها، فلماذا الجهاد والنضال؟ ولماذا التعب والمشقة فلننتظر فقط فرج الله!!

كانت هذه فكرة المسيح عند اليهود، بدأت بمسح الكهنة والملوك والأنبياء بالزيت المقدس، وتطورت خاصة في الضيقات والملمات إلى فكرة المخلص الذي يرسله يهوه لتحرير شعبه المقدس وإخضاع باقي الأمم والشعوب له، والفكرة بعد تطورها لم تكن إلا نوعاً من التنفيس عن الكرب الذي يحس به شعب مستعبد، ينتظر يوم الخلاص على يد بطل من أبطاله، ولا يخلو تاريخ شعب من الشعوب أو دين من الأديان القديمة من الروايات والأساطير التي حيكت حول الأبطال المخلصين والمسحاء المختارين، يصورونهم ملوكاً أو آلهة، أو أنصاف آلهة أو أبناء الهة، قد ينزلون من السماء أو يخرجون من بطن الأرض، وقد تلدهم عذارى أو تلقي بهم عروس البحر، المهم أنهم أشخاص

---

(١) فالنتون أورسلر : الإنسان الخالد . ترجمة رمسيس جبراوي ص ٤٩

غير عاديين سيبدلون الحال حالاً، وسيحيلون العذاب هناءة، والذل عزاً، والضيق فرجاً، والحزن فرحاً.

مولد عيسى:

في وسط هذه الظروف ولد عيسى، ولد في الوقت الذي كانت روما تدوس فيه أعناق اليهود بأقدامها، في غهد أوكتافيوس الملقب بأغسطس قيصر امبراطور الرومان الذي امتد حكمه من سنة ٢٧ ق. م. إلى سنة ١٤ ميلادية، حيث كانت إسرائيل ولاية رومانية صغيرة ممزقة إلى مدن متفرقة يحكم كلا منها وال أو أمير من قبل الرومان وقد يخلع عليه من قبيل التجاوز لقب ملك، ولد عيسى في مدينة صغيرة تدعى بيت لحم على بعد ستة أميال جنوبي العاصمة أورشليم، ولد من أم يهودية تدعى مريم كانت وقتئذ مخطوبة لنجار يهودي فقير اسمه يوسف، ونترك الأناجيل تحدثنا عن قصة ميلاد عيسى.

يقول إنجيل متى «أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا، لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس[1] فيوسف رجلها إذ كان رجلاً باراً ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سراً، ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس، فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع، لأنه يخلص شعبه»[2] ويستطرد إنجيل متى في الاصحاح الثاني قائلاً.. ولما ولد يسوع

(١) أنظر معنى الروح القدس في كتابنا «الله واحد» الفصل السابع.

(٢) متى ص ١ : ١٨ - ٢١

في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من الشرق قد جاؤوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود؟ فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له، فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح؟ فقالوا له في بيت لحم اليهودية لأنه هكذا مكتوب بالنبي: وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعب إسرائيل[1].

ويؤكد لوقا أن عيسى هو المسيح المنتظر الذي سيخلص إسرائيل من أعدائها وسيجلس على عرش داود أبيه، وسيدخل الشعوب والأمم في طاعة الشعب المختار «ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه[*]، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية»[2].

وتمضي الأناجيل في شرح كيفية ميلاد عيسى فتقرر أن أمه وضعته في اسطبل البهائم ملحق بأحد الفنادق الريفية الصغيرة، وأن بعض الرعاة الوثنيين قد أتوا إلى مكان ولادته وسجدوا له وقدموا بعض الهدايا باعتبار أن المولود سيكون ملك اليهود. وأن ملك البلاد الحالي هيرودس المعين من قبل الرومان قد خاف واضطرب عندما علم بمولد الطفل، وخشي على ملكه الذي سيستولي عليه عيسى فأقام مذبحة قتل فيها جميع الأطفال الذين

---

(١) متى ص ٢ : ١ - ٦

(٢) لوقا ص ١ : ٣٢

* لم يحدث شيء من ذلك.

في بيت لحم وفي كل تخومها ظناً منه أن الطفل عيسى ملك اليهود سيكون بينهم، ولكن مريم وزوجها يوسف كانا قد هربا بالطفل إلى مصر ولم يعودا إلا بعد موت هيرودیس.

وتكثر الروايات والأقاصيص وتتشعب التفاصيل والفروع التي تتفق حيناً وتختلف أحياناً بين الأناجيل، ويعنينا هنا معالجة أمرين: ميلاد عيسى من عذراء، ونسب عيسى.

ابن العذراء:

تروي الأناجيل أن مريم حبلت بعيسى وولدته قبل أن تتصل برجلها يوسف وقبل أن تنجب من صلبه إخوة عيسى الآخرين، أي أن عيسى دون باقي إخوته، قد ولدته أمه وهي ما زالت عذراء. ولقد اختلفت الآراء في حقيقة هذا الميلاد العذراوي، البعض يرونه أسطورة تكمل رواية المسيح المخلص فلطالما رددت الشعوب القديمة الأقاصيص والروايات عن الأبطال والآلهة الذين ولدوا من عذراوات، فكان الفرس مثلاًيعتقدون أن زرادشت ولد من أم عذراء، وكان المصريون يعتقدون ذلك في رع، والصينيون في فوهى، والروم في أتيس وهكذا. . . .

بل إن الأناجيل نفسها تحدثنا أن هذا الحادث قد جعل أقرب الناس إلى مريم وهو خطيبها يوسف يفكر في تركها عندما علم بموضوع حملها مما جعل مريم تتكتم الخبر بعد ذلك على أعز الناس إليها. . وولد عيسى فعرفه الناس على أنه ابن يوسف النجار زوج مريم وتربى الولد وكبر وهو لا يعرف لنفسه أباً غير يوسف، ولم تستطع مريم وزوجها التصريح لأحد بأن عيسى قد ولد قبل اتصالهما ببعضهما.

ومع ذلك فقد تناقل الناس أخبار حمل مريم قبل الأوان. وترددت بينهم الأقاويل والشائعات، بعضهم يرميها بأقذع الصفات فيتهمها بالفاحشة وبالحمل سفاحاً من أحد الغرباء أو الجنود الرومان، وبعضهم يخفف من غلوائه ويلطف من قسوته فيؤكد أن مريم وخطيبها يوسف قد أرقهما الحب فاتصلا ببعضهما قبل الأوان فكان حمل عيسى.

وكانت الرواية الأخيرة أكثر الروايات إشفاقاً على مريم المسكينة التي أقضى مضجعها الحمل، وسهد ليلها وأضنى نهارها، ماذا سيقول الناس عنها؟ هل سيصدقون أنها حملت دون أن يمسها رجل؟ لا شك أنها رواية بعيدة عن التصديق. ومن دأب الناس في كل زمان ومكان الميل إلى تصديق الجوانب السيئة في الرواية، وترجيح جانب الدنس على جانب الفضيلة فيها. بل لقد رأى البعض أنها حتى لو حملت وما زالت عذراء، فكم من النساء حملوا وما زالوا عذارى، فقد يتصل الرجل بالمرأة ولا يفض بكارتها ولكنها تحمل منه، وقد تلبس الفتاة ثوباً علقت به بعض الحيوانات المنوية، فينسل أحدها إلى رحمها ويحدث الحمل وهي لم تلتصق برجل، كل ذلك يحدث في الواقع مرات ومرات، وكل ذلك ثار في أذهان الناس عندما علموا بخبر حمل مريم، وكان كل حديث منها أقرب إلى التصديق من القول بأن حملها كان بإرادة الله، بل كانت أكثر الروايات شيوعاً هي حملها سفاحاً من رجل أجنبي.... كانت أقاويل الناس كالمدى تقطع من مريم الأحشاء وتمزق النفس، وكانت نظراتهم المتبجحة وضحكاتهم الساخرة عند مرورهم بها تسري كالسم الزعاف في جسدها

ودمائها، ولطالما تمنت الموت على الحياة وسط هذا الجحيم، فاعتزلت الناس هي ورجلها يوسف، وارتحلت من قريتها الناصرة إلى بلدة بيت لحم حيث لا يعرفها أحد، ولا يسمع عنها أحد.

يقول ول ديورانت: «أما القصص التي أذاعها سلسس فيما بعد عن مريم وجندي روماني فالنقاد مجمعون على أنها افتراء سخيف، وأقل من هذا سخفاً تلك التي تذكر أكثر ما تذكر في الأناجيل المحذوفة عن مولد المسيح في كهف أو اسطبل، وعن سجود الرعاة والمجوس له وعبادتهم إياه، وعن مذبحة الأبرياء، والفرار إلى مصر، وإن كان العقل الناضج لا يرى ضيراً في هذا الشعر الشعبي.. ويلوح أن مولد المسيح من عذراء في عصر متأخر عن الاعتقاد بأنه من نسل داود»[1].

وكم من الناس صدق الأكذوبة، وكم من الناس جعل نفسه بوقاً لإذاعتها، مريم حملت سفاحاً، وابنها عيسى ثمرة علاقة محرمة، وما زالت قصة ميلاد عيسى من عذراء محل استهزاء اليهود وتهكمهم، وما زالوا يعتقدون حتى الآن أن عيسى ولد من الفحشاء والدنس، وكم لمز اليهود عيسى في حياته ورموه بهذا الوصف، وتندروا عليه بهذه الضعة في مولده، قالوا له متفاخرين: «إننا لم نولد من زنا»[2]، أي أننا لسنا مثلك من أولاد الزنا بل إن لنا آباءنا الشرعيين، وليت الأمر اقتصر على اليهود، بل إننا نجد من المسيحيين أنفسهم من يتشكك في هذا الميلاد العذراوي، ومن يعرض عن ذكره تكذيباً ونفياً، يقول الدكتور بترسون

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ص ٢١٤ جزء ٣

(٢) يوحنا ٨ : ٤٠

سميث: «رأيت من اللائق أن أفرد فصلاً خاصاً لميلاد المسيح العذراوي الذي نجم عنه شيء من الريبة في بعض العقول، بل إنه خلال حياة المسيح لم يفكر أحد قط من التلامذة أو يخطر بباله ميلاده من عذراء، ذلك أن الأم العذراء التي حفظت جميع الأمور في قلبها تكتمت الأمر ولم تفشه إلا لنفر قليل من الأخصاء، وذلك لدقة الأمر وبعده عن التصديق، فعرف السيد المسيح بأنه ابن يوسف النجار خطيب العذراء مريم وقتئذ، والتاريخ يروي لنا كل الفريات المستقبحة التي أذاعها الناس عن مريم وقتئذ، حتى ارتاب خطيبها في طهارتها وعفتها، وأراد أن يخليها سراً، وأخيراً علم بالأمر ولكنهما تكتما عن الجموع، وما كان يمكن أن يذيعاه في عالم مشبع بالشكوك والافتراءات التي لم يكن من الممكن أن تفهم ذلك الاختبار الفريد الفذ»[١].

وفي وسط هذه الترهات والشائعات التي جعلت ميلاد عيسى العذراوي مادة للتسلية والترويح والسخرية بعيسى وأمه، ووسيلة للتهكم والتقريع، كان يمكن للقرآن أن يؤيد شائعات اليهود، أو أن يسكت تماماً عن قصة الميلاد العذراوي فلا يعد لها في التاريخ وجوداً، ويذكر الناس عيسى كما ذكروه دائماً على أنه ابن مريم وزوجها يوسف النجار، ولكن الحق الصادر من لدن الرحمن يؤكد حقيقة الميلاد يذكرها رغم تكذيب الكثيرين. يؤكدها ليرفع من قدر عيسى وأمه ويدرأ عنهما ما لصق بهما من أوزار المنكرين.

---

(١) بترسون سميث : حياة يسوع ، ترجمة حبيب سعيد ص ٢٤

يبدأ القرآن بذكر تبشير جبريل لمريم بغلامها الزكي، يقول سبحانه: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا[1] فتمثل لها بشراً سوياً قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا، قالت: أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً، قال: كذلك قال ربك هو على هينّ ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾[2].

ثم يستطرد القرآن في ذكر الآلام النفسية التي تعرضت لها مريم بسبب الحمل وابتعادها عن الناس اتقاء ألسنتهم الجارحة ونظراتهم الوقحة، حتى أنها فضلت الموت على الحياة، ويذكر أقاويل الناس وافتراءاتهم، وتهكمهم وتقريعهم للعذراء المسكينة، بقوله جل وعلا ﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا. فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا، فكلي واشربي وقرّي عينا، فإما ترينّ من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً، فأتت به قومها تحمله قالوا: يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾[3].

هذا هو القرآن، حديث الرحمن، يرفع عن مريم وابنها قالة

---

(١) المقصود به هنا الملاك جبريل عليه السلام.

(٢) سورة مريم ١٥ ـ ٢٠

(٣) سورة مريم ٢١ ـ ٢٧

السوء ويطهرها من الدنس والفاحشة ، ويرفع عن ابنها نجاسة الأصل وسوء المنبت ، يرفع مريم من درك الزانيات والبغيات إلى مرتبة الطهر والعفاف ، بل إلى درجة الاصطفاء ، يرفعها إلى أعلى المراتب بين نساء العالمين وهي التي رماها قومها بالسوء والدنس .

يقول الكتاب الكريم ﴿**وإذ قالت الملائكة: يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين**﴾[1] بل إن القرآن يجعل التقول على مريم بهذه الأكاذيب التي اخترعها قومها في درجة مساوية للكفر، فمن ينكر ولادة عيسى بن مريم وهي عذراء فهو في مرتبة واحدة مع الكافر، لا ينفعه إيمانه، ولا يشفع له دينه فهو في مرتبة واحدة مع الكافر، ولا ينفعه إيمانه، ولا يشفع له دينه وإسلامه، يقول تبارك وتعالى عن اليهود أعداء الحق : ﴿**وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً**﴾[2] فالتقول على مريم بهتان وكذب، والخوض في عرضها الشريف إثم وكفر، يستحق فاعله عذاب الجحيم.

هذا هو الميلاد العذراوي لعيسى، ينفيه الكثيرون ويتندر به الكثيرون، ويتشكك فيه الكثيرون ويخشى ذكره الكثيرون، حتى كتاب الأناجيل أنفسهم لم يشر إليه منهم سوى متى ولوقا، أما الباقون فيعرضون عن ذكره، حتى بولس رسول المسيحية(*)

(١) سورة آل عمران ٤١

(٢) سورة النساء ١٥٥

* بولس : هو شاوول اليهودي الفريسي في الحقيقة كما يعترف بذلك (أنظر أعمال الرسل ٣١ : ٣٩) وقد كان من أشد الناس على النصرانية واضطهاداً لأبنائها (أعمال الرسل ٨ : ٣) ثم زعم أنه رأى نوراً عظيماً في السماء وسمع صوتاً =

ويوحنا حبيب عيسى لا يذكـران شيئاً عن هذا الميلاد، وكأنه شيء يخشى الخوض فيه أو الحديث عنه، مخافة السخرية والتهكم، أو مخافة الظن والشكوك. ولكن القرآن حديث الرحمن، لا ينطق إلا بالحق للناس أجمعين، فيذكر الميلاد العذراوي لعيسى ويتعرض له ويخوض فيه ويؤكده، ويقضي على الشائعة وعلى الشكوك ويلقم المستهزئين والمتهكمين حجراً، بل إن القرآن يذكر لعيسى معجزة حدثت عند مولده لا تقل في روعتها عن معجزة ميلاده من عذراء، معجزة لم يرد لها ذكر في كل الأناجيل، تلك هي معجزة حديث عـيـسـى إلـى الـنـاس بـمـجـرد ولادتـه، وهـو مـا زال في المهد طفلاً لم تمضِ على ولادته ساعات، حديث أنطقه به الله ليؤكد براءة أمه وخلو ساحتها، وليدفع عنها ألسنة السوء وسياط التقريـع. أتت مـريم تحمـل إبنهـا فقـابلهـا النـاس كالجلادين.. من هذا؟ وابن من هذا؟.. ومن أين أتت به؟ ومن أي رجل حملت به؟ وفزعت مريم وتلفتت حولها فلم تجد أحداً تستنجد به غير هذا الرضيع الذي يعرفُ الحقيقة كلها ولكنه لا

= يناديه: «شاول شاول لماذا تضطهدني؟ فقال من أنت يا سيد؟ فقال: أنا يسوع الرب الذي أنت تضطهده (أعمال الرسل ٩: ١ - ٧) فادعى التوبة عن اضطهاد أتباع المسيح. ثم زعم أنه نبي مرسل من قبل المسيح فصدقوه ووثقوا بكلامه حتى صار يشرع لهم ما يريده ولو كان فيه مخالفة للناموس. ولهذا كان له دوره الخطير وأثره الفعال في اصطباغ النصرانية بصبغة الثالـوث الشركي. ومن الدلائل على خطورته قوله بأنه يبدو لكل طائفة وكأنه منهم. يقول: «إستعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين. فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس. وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس.. صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء. وهذا أنا أفعله لأجل الانجيل لأكون شريكاً فيه» (رسالة بولس إلى أهل كورنثوس ٩: ١٩ - ٢٣).

ينطق، فأشارت إليه في يأس واستكانة، فأنطقه الله بـالحقيقة، يقول سبحانه ﴿ فأشارت إليه قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبيا، قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾[1].

هذا هو القرآن، حديث الحق من لدن الرحمن، يؤكـد معجـزة الميلاد، ويـذكر أيضـاً حـديث الميـلاد، ويقضي على شائعات اليهود(*)، ويمحو تشككات المسيحيين، ويجعل مريم وابنها آية للعالمين، ولو كان من عند غير الله، لشايـع هؤلاء وهؤلاء، أو لغفل عن هـذا وذاك، ولترك الكذب يقضي على الصدق كما يحدث كثيراً، ولكن الحق تبارك وتعالى ينصر الصدق في النهاية ويقضي على الكاذبين.

نسب عيسى:

قلنا إن عيسى ولد في وقت كانت فيه إسرائيل مستعمرة رومانية صغيرة، مقطعة الأوصال مهيضة الجانب، مذلولة الكرامة، تستصرخ ربها يهوه أن يرسل إليها مسيحاً يخلصها من عبـودية الرومان ويعيد إليها مجد داود وذهب سليمان.

---

(1) سورة مريم ٢٨ ـ ٣١

* إن ما ورد في الأناجيل حول مولد المسيح وعائلته التي نشأ فيها لا تبدد الإفتراءات اليهودية حوله وحول أمه عليهما السلام بل على العكس فإن إرجاع نسبه إلى يوسف النجار يؤيد هذه الإفتراءات التي تزعم بأن مريم حبلت به من يوسف قبل زواجه منها. والفضل في تبرئتها وإثبات عفتها يرجع إلى القرآن.

أما الأناجيل فلم تحسم هذا الإختلاف الذي فيه الناس بين مادح وقادح. حتى بقيت شبهات اليهود قائمة ولا من مجيب.

ولد عيسى وسط هذه الآلام والآمال، وحاول كتاب الأناجيل أن يلقوا في روع الناس أن عيسى هو المسيح المنتظر، المسيح الجديد، الذي أتى ليخلصهم من عبودية روما ويعيد إليهم مجدهم الضائع، وتهافت كتاب الأناجيل على استدعاء آيات العهد القديم، واستنطاق أنبيائه قسراً، وتحوير الكلمات والروايات التي تحدثت عن المسيح المنتظر ليكون المقصود بها عيسى، وتعديل الأوصاف والأشكال التي قيلت عن المسيح لتصدق على عيسى، بل شكلوا عيسى نفسه ليوضع في قالب المسيح المخلص. ولقد سبق أن ذكرنا أن أكثر النبوءات شيوعاً عن المخلص الذي سيرسله الله لتحرير إسرائيل أنه سيكون من سلالة داود، ملك العصر الذهبي لليهود، من أجل هذا قرر كتاب الأناجيل أن عيسى من سلالة داود، وأجبروا مريم في صحفهم على أن تترك بلدتها الناصرة وتذهب إلى مدينة بيت لحم التي كانت منبت داود لتلد فيها عيسى.

ولكن هؤلاء الكتّاب قد وقعوا هنا في مأزق عجيب، بل وفي تناقض صارخ، فبينما يقررون أن عيسى ولد من مريم دون أن يمسها رجل، يعودون فيقررون - جرياً وراء أسطورة المسيح المخلص - أن عيسى من نسل داود، ولو كان عيسى ينتسب إلى داود من جهة أمه مريم لكان أمراً من الممكن قبوله، أي لو كانت مريم من ذرية داود لكانت نسبة عيسى إلى داود أمراً مفهوماً، ولكن الدهشة تعلو وجوهنا عندما نراهم يربطون بين عيسى وداود عن طريق يوسف النجار. يقول متى عن نسب عيسى: « كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم، إبراهيم ولد اسحق،

وأسحق ولد يعقوب ، ويعقوب ولد يهوذا وإخوته، ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار . . ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً، ومن داود إلى سبي بابل أربعة عشر جيلاً، ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً»[1].

ويتحدث لوقا أيضاً عن نسب عيسى رابطاً بينه وبين داود عن طريق يوسف النجار يقول لوقا إن مريم كانت مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف. . ثم يستطرد لوقا فيؤكد أن عيسى سيخلف جده داود على عرش إسرائيل، ويعطيه الربّ الاله كرسي داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية[2].

هكذا ربطوا بين عيسى وداود برابطة الدم والقرابة، وجعلوا أولهما فرعاً للثاني وخارجاً من صلبه، كل هذا عن طريق رجل تؤكد الأناجيل أنه لم يمس مريم أثناء حملها بعيسى، ولم يضاجعها إلا بعد مولده، فكيف يسوغ هذا في العقل والمنطق؟ الواقع أنهم قد وقعوا هنا في مأزق خطير، لقد أرادوا أن يلبسوا عيسى ثوب المسيح المنتظر فخلعوا عليه كلية أوصافه ولم يبق إلا أن يكون عيسى من نسل داود، ولما كانت مريم أم عيسى ليست من نسل داود فلم يكن بد من أن يربطوا بينها وبين رجل من سلالة داود هو يوسف، ربطوا بين مريم ويوسف برباط الحب والخطبة، وجعلوا من يوسف خطيب مريم أبا لعيسى وأصلاً له

(١) متى ص ١ : ١ - ١٧
(٢) لوقا ص ١ : ٢٧ ، ٣٢ - ٣٣

فعلوا ذلك في الوقت الذي اختارت فيه السماء مريم لتلد إحدى معجزات الله، فشوهوا بذلك من قيمة المعجزة، وجعلوا مريم تنشغل بخطيب طنه الناس عاشقاً ورفيقاً، بل تمادوا فجعلوا يوسف والد عيسى، كل ذلك ليكون عيسى ابن داود. والواقع أنهم بجريهم وراء أسطورة المسيح المخلص ومحاولتهم خلع لباس المسيح على عيسى، قد جردوا عيسى ابن العذراء من ميزته الكبرى ومعجزته العظمى، جردوه من حيث لا يشعرون من معجزة ميلاده دون زرع رجل، بل وصموه وأمه دون أن يشعروا بأشنع الأوصاف وأحط الاتهامات، فسايروا بذلك افتراءات أعدائه عن دنس مولده وفحش أمه. هكذا فضلوا الأسطورة على الحقيقة، فضلوا أسطورة المسيح ابن داود على حقيقة عيسى ابن العذراء، جعلوا عيسى المسيح بن يوسف بن داود، ورفضوا أن يكون عيسى المبارك صاحب الميلاد المعجز الفريد.

وفي روايتهم عن نسب عيسى نرى بعضهم يقرر أن يوسف والد عيسى ابن يعقوب بينما يقرر البعض الآخر أن يوسف ابن هالى وليس ابن يعقوب، وخلاف آخر نراه بينهم حول الجد التالي لعيسى من أبناء داود أهو سليمان أم ناثان، فنرى البعض يذكر أن عيسى من أبناء سليمان بن داود، بينما يذكر آخرون أن عيسى من أبناء ناثان وليس سليمان، وعند سرد الأجيال التي انقضت بين زمن عيسى وزمن داود يقرر البعض أنه مرَ منذ زمن عيسى إلى داود ٢٦ ستة وعشرون جيلاً(*) بينما يذكر آخرون أن بين الاثنين واحداً وأربعين جيلاً.

* ويظهر التناقض بوضوح في ذكر نسب المسيح بين لوقا ومتى ابتداء من داود وسأسرد الأسماء التي ذكرها متى والتي ذكرها لوقا ليتبين هذا التناقض الصارخ :

قلنا إن الربط بين عيسى ويوسف وداود برابطة القرابة وإن كان قد خدم القول بأن عيسى هو المسيح المنتظر إلا أنه هدم

النسب حسب متّى

داود	شالتثيل
سليمان	زربابل
رحبعام	ابيهود
أبيا	الياقيم
أسا	عازور
يهو شافاط	صادق
يورام	اكيم
عزيا	اليهود
يوتام	العازر
أجاز	متان
حزقيا	يعقوب
منسا	يوسف
أمون	عيسى عليه السلام
يوشيا	
يكنيا	

النسب حسب لوقا

داود	زربابل
ناثان	ريسا
متاثا	يوحنا
مليا	يهوذا
الياقيم	يوسف
يونان	شمعي
يوسف	متتبا
يهوذا	بآت
شمعون	نجاي
لاوى	حسلي
متات	ناحوم
يوريوم	عاموس
عازر	متتا
بوسي	يوسف
غير	نيا
المودام	ملكي
موسام	لاوي
آدي	متات
ملكي	عالي
نيرى	يوسف
شالتثيل	عيسى

فإنهما وإن اختلفا في أسماء وأعداد أجداد المسيح إلا أنهما متفقان على أن يوسف النجار ـ وهو آخرهم ـ والد المسيح عليه السلام !!

معجزة ميلاد عيسى الفريد، وهذا ما دعا الكثيرين إلى اغفال ذكر حادث الميلاد لما أحاط به من شبهات وافتراءات، بل إن الكثيرين من تلاميذ عيسى اللصيقين به لا يعرفونه إلا بأنه ابن يوسف . يروي يوحنا محاورة جرت بين اثنين من التلاميذ كانا يتحدثان عن عيسى يقول يوحنا أن «فيلبس وجد نثنائيل وقال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء، يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة»[1].

وعرف الجميع عيسى على أنه ابن يوسف، شقيقاً لأخوته الآخرين أبناء النجار ومريم، يقول متى «ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم في مجمعهم حتى بهتوا، وقالوا: من أين لهذا هذه الحكمة والقوات؟ أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم؟ وإخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا، أو ليست أخواته جميعاً عندنا؟[2].

طمسوا معجزة الميلاد سعياً وراء أسطورة قديمة.. قضوا على عيسى ابن العذراء ليقيموا المسيح ابن داود. مخلص إسرائيل وباعث مجدها، ولو كان ابن النجار مطعون النسب سيء المنبت، قضوا على ابن العذراء وأعطوا أعداءه سهاماً ومدى ينهشون بها عرض أمه البتول، ورفض أغلبهم ذكر شيء في انجيله عن معجزة الميلاد وكأنها عار أو فضيحة يجدر ابقاؤها في طي الكتمان، وحتى من ذكر المعجزة منهم فإنه كان في سردها أقرب إلى الشك منه إلى اليقين، مما أزكى لهيب الشائعات فاندفعت تنتشر بين الناس إنتشار النار

(١) يوحنا ص ١ : ٤٤ ـ ٤٥

(٢) متى ص ١٢ : ٥٤ ـ ٥٦ بيرقس ٦ : ٣

في الهشيم، وتساءل الناس أحقاً عيسى ابن العذراء كما يدعي البعض؟ أم أنه ابن يوسف؟ هل ولد عيسى حقاً بغير أب؟ وضحك الناس، استهزاء بالمعجزة وكأنها خرافة أو ضرب من الخيال، ومالوا إلى تصديق الشائعات والأكاذيب التي كان أخفها وقعاً القول بأن يوسف قطف الثمرة قبل الأوان، وضاجع مريم قبل الزواج، فولدت عيسى ونسبته إليه.

ومرت الأيام ونسي الناس الحقيقة وسط الترهات، وتمسكوا بالأكاذيب والشائعات، وضاعت في اليم معجزة الميلاد، إلى أن نزل القرآن فأعلن الحقيقة، وقطع دابر الشكوك وأعاد لمريم عفافها وطهارتها، وأعاد لعيسى قدره واحترامه، ولولا القرآن لاندثرت رواية الميلاد، ولعدت من الأباطيل والخرافات التي ترددها الأديان الوثنية القديمة ولما صدقها أحد، ولكنت أنا أول المكذبين.

(*) ولقد حكم الله بكفر اليهود الذين روجوا الشائعات التي تنال من طهارة مريم وعفتها فقال: ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ (١٥٦ النساء). ثم ذكر سبحانه مكانتها وفضلها على النساء كلهم من أولهم إلى آخرهم فقال: ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ (آل عمران ٤٢) لا على نساء عالم الإنس فقط.

الفصل الثاني

شباب عيسى عليه السلام

الصبي يسوع:

بعد تبشير الملاك لمريم بغلامها الزكي حملت به، وظل ينمو في بطنها جنيناً طوال تسعة أشهر كاملة، مر فيها بكل الأدوار التي يمر بها سائر الأجنة، اخذ من لحمها لحما، ومن عظمها عظماً، ومن دمها دماً[1]، ومن روحها روحاً واعصابها وأنفاسها وكل شيء فيها، حتى اكتملت أشهر الحمل، وحان وقت الوضع، وجاءها المخاض فلفظته من فرجها ليقابل الحياة.

يقول لوقا عن مريم ويوسف والمولود «وبينما هما هناك تمت

---

(١) أنظر التوراة سفر التكوين.

أيامها لتلد، فولدت ابنها البكر، وفطمته وأضجعته في المذود إذ لم يكن لهما موضع في المنزل»[1].

ولد عيسى طفلاً كسائر الأطفال، يصرخ جوعاناً فتلقمه أمه ثديها، ويبكي ضجراناً فتهدهده في حرجها، يغوط ويتبول فتغسله وتنظفه، وتزيل عنه اتساخه وتعيد إليه هندامه، وتقمطه وتكسوه، يمرض أو يتوعك فتهرع إلى الأقارب والأحباب تسألهم الدواء وتستشيرهم العلاج، ينام فتضجعه في مذود البقر وتسهر إلى جواره، تحرسه وترعاه هي وزوجها يوسف.

وحين أصبح عيسى ابن ثمانية أيام ختن كما يختن سائر الأطفال، وقطعت لحمة غرلته تنفيذاً لعهد الله مع ابراهيم بأن يختن كل ذكر في لحم غرلته وأن يحفظ هذا العهد في شعب إسرائيل إلى الأبد يقول لوقا عن ختان عيسى. . «ولما تمت ثمانية أيام ليختتنوا الصبي سمي يسوع»[2].

وبعد أن تطهرت مريم من طمثها، وانتهت أيام نفاسها حرصت ورجلها يوسف اليهوديين الصالحين على أن يقدما ليهوه إله إسرائيل الذبائح والمحروقات، حمداً وعرفاناً له على ما رزقهما من حسن الولد، كما حرصا على تنشئة الصبي ليكون إسرائيلياً حقيقياً حسب الناموس والشريعة فقاما بتهويده ونذره مقدساً للرب باعتباره ابنهما البكر، يقول لوقا «ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى (أربعين يوماً) صعدوا به إلى

---

(١) لوقا ص ٢: ٥ ـ ٧.
(٢) لوقا ص ٢ : ٢١

أورشليم ليقدموه للرب كما هو مكتوب في ناموس الرب (شريعة إسرائيل) إن كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوساً للرب. ولكي يقدموا ذبيحة كما قيل في ناموس الرب زوج يمام أو فرض حمام»[1].

ومع مرور الأيام والسنين أخذ جسد عيسى يكبر، وأخذ عوده يشتد وعقله ينمو وقلبه يتفتح للحياة، يقول عنه لوقا «أما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس»[2]. ولما بلغ الثانية عشرة من عمره أصبح بحسب الشريعة اليهودية بالغاً« جادول» وصار يعامل معاملة الرجال، فكان عليه أن يختار مهنة، ففي هذه السن ينبغي لكل يهودي أن يحترف حرفة، وكان يخرج مع أبيه يوسف إلى حانوته، فهوى النجارة وتدرب عليها واتخذها حرفته، وكان يعمل في حانوت والده المتواضع بكل جد واجتهاد من شروق الشمس إلى غروبها، فإذا جاء الليل أو حل يوم العطلة «السبت » ذهب إلى المعبد يطالع الشريعة الاسرائيلية ويسبر أغوارها على يد الأحبار والكهان.

وكان على كل يهودي أن يذهب إلى أورشليم مرة كل سنتين للحج وذلك وقت عيد الفصح، العيد الأكبر لليهود، ذكرى خروجهم من مصر مع موسى وتخلصهم من عبودية فرعون وقومه، ولكن أبوي عيسى الإسرائيليين الحقيقيين كانا يحجان كل سنة، وكانا يأخذان معهما ولدهما عيسى حتى يتشرب منذ نعومة أظفاره حب الشريعة وتقديس الناموس، وفي إحدى المرات التي ذهب

---

(١) لوقا ص ٢ : ٢٢ ـ ٢٤

(٢) لوقا ص ٢ : ٥٢

فيها الأبوان مع ولدهما للحج، وبعد إتمام مراسيمه وإنهاء طقوسه، تأهب الوالدان للعودة، ولكن الصبي النابه انسل من بينهما وعاد إلى الهيكل يلتمس مزيداً من العلم والدراسة، تاركاً والديه في جزع وهلع يقول لوقا «وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح، ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد، وبعدما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي يسوع في أورشليم ويوسف وأمه لم يعلما، وإذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه، وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالساً بين المعلمين يسمعهم ويسألهم، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته، فلما أبصراه اندهشا وقالت له أمه: يا بني لماذا فعلت بنا هكذا؟ هوذا أبوك(*) وأنا كنا نطلبك معذبين... ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما»(١).

ويتحدث الروائي فالتون أورسلر عن عذاب الأم الحنون والأب المسالم وما كابداه من حزن وضيق خلال الأيام الثلاثة التي غاب فيها عنهما ولدهما الصغير دون أن يعرفا مكانه، ومقدار الخوف والفزع الذي ألم بهما خشية أن يكون قد أصابه مكروه، هذا بينما عيسى منشغل في دراسة الديانة الاسرائيلية مع أحبار اليهود، يقول أورسلر «ولم يحس «يسوع» ولا أحس متتبعو هذه

---

* وهذا يثبت أن الأناجيل تعتبره الأب الحقيقي ليوسف النجار ولولا ذلك ما أدخلوا يوسف في النسب وفي آخر سلالة داود ليدرجوا إبهم عيسى بعده.

(١) لوقا ص ٢ : ٤١ ـ ٥١

المناقشة المثيرة بمضي الوقت الطويل حتى رأى يسوع من فوق رؤوس الجالسين من حوله وجه «مريم» المصفر وقد لمع في عينيها عتاباً وانهمرت منهما الدموع. وكانت هذه هي المرة الأولى بل المرة الوحيدة، التي بدا عليها أنها لم تكن تتفاهم معه بروحها إذ قالت: ولدي، لماذا فعلت هذا بنا؟ لقد كنا ـ والدك وأنا ـ نبحث عنك طوال الوقت متوجعين؟ وودع يسوع العلماء والأساتذة ورأى أنه ـ حتى الآتين أخيراً منهم ـ قد بدا عليهم الإجهاد.. ولف على كتفي والدته العباءة العميقة الزرقة التي كانت تلبسها، وأمسك بيدها إلى الخارج، وروت له ما كان من أمرها «ويوسف» ثم عاد يسوع إلى بنوته لهما فوراً فاندفع يعانق أمه، وقبل لحية أبيه الذهبية التي بدت فيها شعيرات أخذت تحيلها رمادية، وانتهت فترة قلقهما، وأقبل شباب يسوع طيعا لهما، ورأياه يتقدم نحو الرجولة، وينمو في الحكمة والنعمة عند الله والناس»[1].

وعندما بلغ عيسى الثامنة عشرة من عمره توفي أبوه يوسف، فأصبح العائل الوحيد لأمه وإخوته باعتباره الابن الأكبر، وكان عليه أن يواصل العمل في حانوت والده ليطعم هذه العائلة الصغيرة ويسد حاجيات أفرادها من الغذاء والكساء، فظل يكدح بالمنشار والمسحاة طوال النهار من أجل العيش، فمن لا يعمل لا يأكل، ومن لا يأكل يموت.

ولما صار ابن الثلاثين ذهب إلى نهر الأردن، حيث ابن خالته يوحنا، النبي الحصور، يعمد الناس لغفران الخطايا، وطلب

---

(١) فالتون أورسلر: الإنسان الخالد، ترجمة رمسيس جبراوي ص ١١١

عيسى من يوحنا أن يعمده وأن يغسل جسده في مياه نهر الأردن، ليصير أشد طهراً وصلاحاً، فعمده يوحنا كما عمد باقي الشعب(*)، يقول لوقا «ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً»(1).

عاش عيسى منذ مولده حتى بعثه في سن الثلاثين إنساناً عادياً، طفلاً خاضعاً لوالديه يطعمانه ويكسوانه، وصبياً صغيراً يربيانه ويعلمانه، وشاباً يافعاً ينصحانه ويرشدانه، تصقله الأيام وتحنكه التجارب، ويتعلم النجاح والفشل، لم يحدث في حياته طوال هذه الفترة شيء غير عادي، خلا معجزة ميلاده الفريد، ومعجزة نطقه في المهد ليدفع عن أمه قالة السوء(**)، ميلاده الفريد الذي أخفاه أهله وكذبه أصحابه، ونطقه في المهد لحظة ميلاده ليصد الشائعات ويناوىء الترهات، خلا هاتين المعجزتين لم يكن لعيسى حتى سن الثلاثين ما يجعله غريباً عن باقي الناس، أو شاذاً عن سائر البشر، نطق عيسى في مهده مرة واحدة لحكمة أرادها الرحمن ثم توقف بعد ذلك عن النطق، وعاد كسائر الأطفال لا ينطق ولا يتحدث، حتى حان موعد نطقه العادي فنطق كالباقين

---

* وكيف يحتاج ابن الإله الى الماء المقدس ليطهر نفسه أكان مغموساً بالخطايا كباقي الشعب ؟ ولماذا لا تتجه أنظار التقديس إلى يحيى الذي عمّده ، أليس الذي يعمّد الناس لمغفرة خطاياهم خالٍ من الخطايا والآثام وإلا كان الأولى به أن يبدأ بتعميد نفسه !!؟

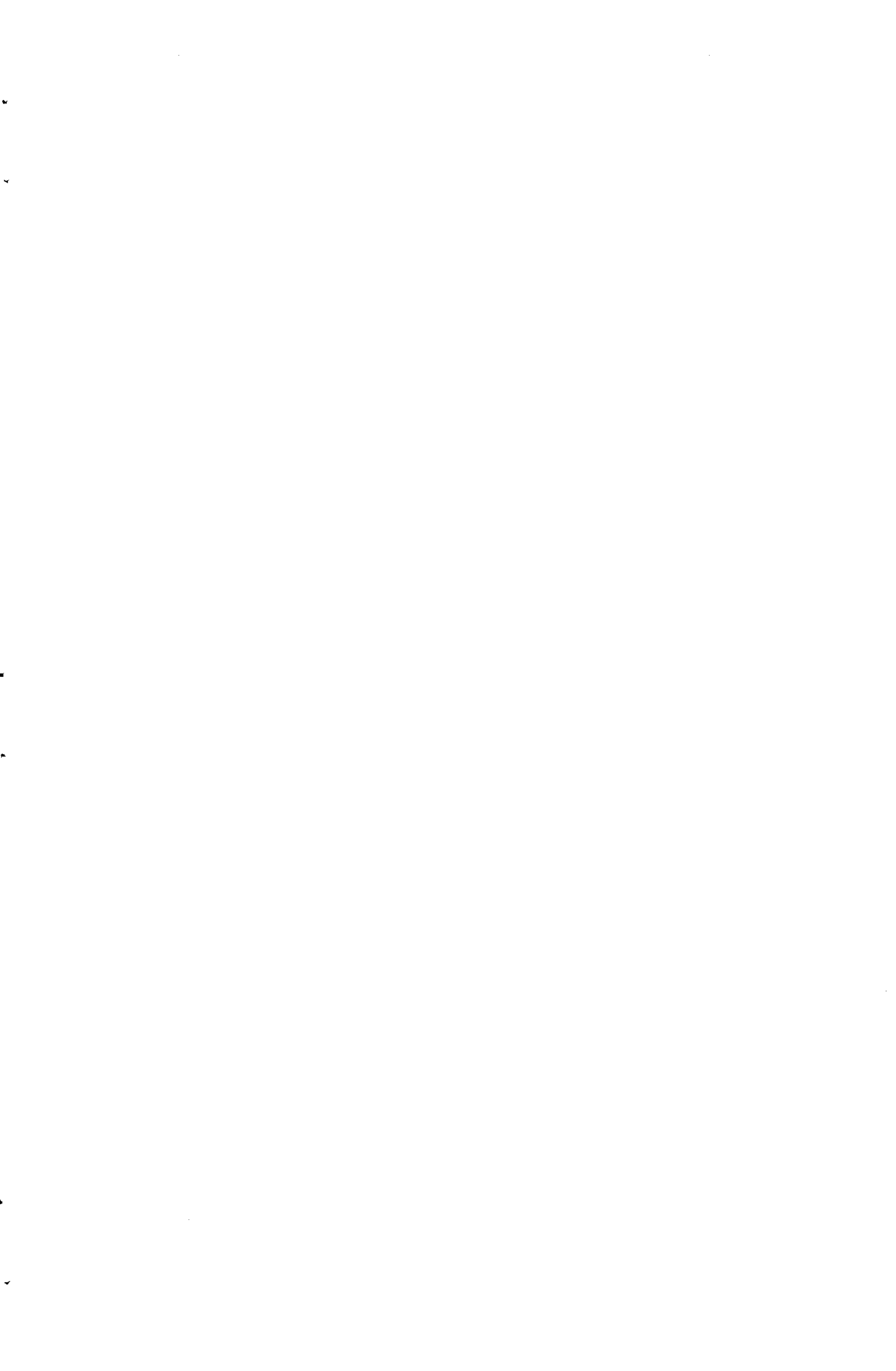
** لم يذكر أي واحد من كتّاب الأناجيل معجزة نطقه عليه السلام في المهد ، ولعل العلة في ذلك ـ كما قال الشعراوي ـ إخفاء الكلمات التي تلفظ بها والتي دلت على عبوديته لله « إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً » (مريم ٣٠) .

(1) لوقا ص ٣ : ٢١

وهكذا في سائر أطوار حيـاته، وكافة مراحل نموه، طفل وصبي وشاب، لم يحدث له طوال تلك الفترة حادث يرفعه عن مرتبة الآدميين، أو يشتم منه خروجه عن فطرة البشر العاديين، أو حتى بلوغه مرتبة الأنبياء أو الأولياء.

الفصل الثالث

حديث المعجزات



لم تخلِ معظم الدعوات صادقة أو كاذبة، ولم يعدم جل الدعاة - فجرة أو صالحين - الاستعانة بالخوارق والآيات يؤيدون بها دعاواهم، ويرمون بها إلى السيطرة على الناس، وتطويعهم لإرادتهم وحملهم على الانصياع لهم.

والدعاة الصادقون يلجأون إلى السماء يسألون العون والنصرة، فيمنّ عليهم العلي القدير بما يشاء من مواهب وإمكانيات، أما الدعاة الكاذبون فيحالفون الجن والشياطين يطلبون المساندة والتأكيد، فتجند لهم مملكة الشيطان ما تيسر من القوى والاستعدادات.

معجزات عيسى:

تروي السير المسيحية أن عيسى عليه السلام قد صنع كثيراً

من المعجزات، أخرج الشياطين وشفى المجانين، جعل العرج يمشون والخرس يتكلمون، والعمى يبصرون والبرص يبرأون، بل أحيا الموتى من القبور وخلق من الطين الطيور.

هذه المعجزات كانت دليل عيسى الأول، وبرهانه على صحة نبوته وصدق رسالته، بل كانت الركيزة الأولى التي قامت عليها المسيحية، يقول الإمام محمد عبده : «أول أصل قامت عليه المسيحية وعمادها هو خوارق العادات، فإذا قرأت الأناجيل المعتمدة فلا تجد للمسيح دليلاً على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق التي تطيل الأناجيل في شرحها وتزيد في عددها، فخوارق العادات من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات».

ولقد كانت هذه المعجزات التى لجأ إليها عيسى لتأييد دعواه، ولحمل الناس على تصديقه بابا نفذت منه دعوى القول بتأليهه، فما دام يشفي الأمراض والأوجاع، ويرد البصر والحياة ويأتى بالخوارق التي يعجز عنها سائر البشر، فلا شك أنه ليس إنساناً عادياً، والأرجح أنه إله أو ابن إله أو بعض إله نزل من السماء وأتى إلى الأرض يعرض على الناس مكنات الآلهة وقدراتها على البشر(*).

صاحب المعجزات:

ويهمنا باديء ذي بدء أن نتساءل: هل كان عيسى يعزو

---

* ودأب المعاندين المكابرين أنهم إذا أرسل الله إليهم بشراً مثلهم امتنعوا عن الإستجابة لدعوته ، وعللوا هذا الإمتناع بقولهم : (أبعث الله بشراً رسولاً ؟) وقولهم (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) فإذا أيده الله ببعض الخوارق التي لم يعهدوها في البشر جعلوها دليلاً على ألوهيته .

هذه المعجزات إلى نفسه، أم إلى غيره؟ هل كان ينسب فضل الآيات إلى ذاته زاعماً أنه صاحبها ومصدرها؟ أم أنه كان مجرد أداة سخرها آخر لاظهار هذه المعجزات؟ ومن هو هذا الآخر الذي سخر عيسى وأيده بتلك المعجزات؟ قبل أن نجيب على هذا السؤال يهمنا أن نتتبع معجزات عيسى لنرى كيفية إتيانه لها ولمن ينسبها؟

تحدثنا الأناجيل عن معجزة إشباع الآلاف من الجياع بخمسة أرغفة وسمكتين فتقول: «فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر، وأعطى الأرغفة للتلاميذ، والتلاميذ للجموع، فأكل الجميع وشبعوا، ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتي عشرة قفة مملوءة والاكلون نحو خمسة آلاف رجل ماعدا النساء والأولاد»[1].

هنا نرى عيسى قبل أن يقوم بالمعجزة وقبل أن يبارك الخبز ويقطعه آلاف القطع لاشباع الناس «يرفع نظره نحو السماء» فلماذا يرفع عيسى نظره إلى السماء؟ ولمن يتجه؟ ومن الذي يطلب منه عيسى العون على إتيان المعجزة؟ هل كان يتطلع إلى أحد النجوم أو الكواكب؟ أو إلى الشمس أو القمر؟ أو أحد المخلوقات في السماء يلتمس منها التأييد لاتمام المعجزة؟ أم كان يدعو خالق الأرض والسماء ليمنحه القوة على تحقيق المعجزة؟.

ومرة أخرى تتكرر معجزة الاشباع، فيقوم عيسى بإطعام

---

(١) متى ١٤ : ١٥ ـ ٢١ ، مرقس ٦ : ٣٤ ـ ٤٤ ، لوقا ٩ : ١١ ـ ٧ ، يوحنا ٦ : ٥ ، ـ ١٣

أربعة آلاف رجل خلا النساء والأطفال بسبع خبزات وقليل من صغار السمك، وهنا نرى عيسى أيضاً يصلي ويبارك ويحمد ويشكر «أخذ السبع خبزات والسمك وشكر وكسر»[1] فمن يا ترى ذلك الذي صلى إليه عيسى، وحمده وشكره على هذه المعجزة؟ هل كان يصلي إلى نفسه، ويحمدها ويشكرها؟ أم كان يشكر آخر؟ ومن هو هذا الآخر؟ يروي لنا مرقس قصة شفاء عيسى لرجل أصم الأذنين أعقد اللسان، لا يسمع ولا يتكلم يقول مرقس: «وجاؤ وا إليه بأصم أعقد وطلبوا إليه أن يضع يده عليه، فأخذه من بين الجمع على ناحية ووضع أصابعه في أذنيه وتفل ولمس لسانه.. ورفع نظره نحو السماء وقال له: افنا أي انفتح، وفي الوقت انفتحت أذناه وانحل رباط لسانه وتكلم مستقيماً»[2].

هنا أيضاً نرى عيسى قبل أن يقوم بالمعجزة يرفع نظره نحو السماء ويتوسل ويئن ويتوجع على الرجل الأصم الأبكم ويسترحم السماء ويتوسل إليها أن تعيد السمع والنطق إلى الرجل المسكين، وعندما يصل دعاء عيسى إلى عنان السماء ويسمح خالقها لعيسى بصنع المعجزة، يتخذ عيسى الخطوات التنفيذية لإتمام المعجزة فتتفتح أذنا الرجل وينحل رباط لسانه.

الله صاحبها:

ومع استطرادنا في ذكر المعجزات التي قام بها عيسى. يتضح لنا صاحب هذه المعجزات والمصدر الذي استمد منه

(١) متى ١٥ : ٣٢ ـ ٣٨ ، مرقس ٨ : ١ ـ ٩

(٢) مرقس ٧: ٣٢ ـ ٣٥.

.عيسى القدرة على إتيانها، يتضح لنا ذلك كما اتضح للجموع الذين شاهدوا هذه المعجزات، بل وللمرضى أنفسهم الذين كانوا محلاً لهذه المعجزات.

يروي لوقا قصة شفاء عيسى لصبي كان به روح نجس، كان يتقمصه شيطان فيصرخ الصبي فزعاً، وينتابه الصرع والهوس، ولا يتركه الشيطان إلا وقد أنهك قواه، يقول لوقا: «فانتهر يسوع الروح النجس وشفى الصبي وسلمه إلى أبيه، فبهت الجميع من عظمة الله»[1].

ومرة ثانية يرى عيسى امرأة مقوسة الظهر، ظلت منحنية طوال ثماني عشرة سنة، تسير وقد أنهكها الضعف وأجهدها الخور والهزال، فيرق لها قلب عيسى فيقوم بشفائها، يقول لوقا: «فلما رآها يسوع دعاها وقال لها: يا امرأة إنك محلولة من ضعفك، ووضع عليها يديه ففي الحال استقامت ومجدت الله».*

ومرة ثالثة يزداد بها وضوح المصدر وينجلي بها الطريق إلى المنبع، ويعرف الجميع الفرق بين الصاحب والأجير، وبين التابع والمتبوع، وبين الأصل والأداة، يحدثنا متى عن مفلوج أتوا به إلى عيسى محمولاً على فراشه لا يستطيع السير أو الحركة «حينئذٍ قال للمفلوج: قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك، فقام ومضى إلى بيته، فلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطاناً مثل هذا»[2].

---

(١) لوقا ٩ : ٣٧ ـ ٤٣

* لوقا ١٣ : ١١ .

(٢) لوقا ١٣ : ١٠ ـ ١٣

ومرة رابعة شحاذ أعمى يعيد إليه عيسى قوة الإبصار، وحين تتفتح عينا الأعمى يمجد الله وجميع الشعب إذ رؤوا سبحوا الله[1]..

ومرة خامسة يقوم عيسى بإحياء ابنة أرملة نايين، فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه[2].

معجزات مختلفة جرت على أيدي عيسى وشاهدها الناس فسعدوا بها وفرحوا لها، ولكن أبصارهم لم تقف عند الأداة التي صنعت المعجزة بل امتدت إلى خالق الأداة ومحركها، امتدت إلى مصدر المعجزات وصاحبها، عرفوا الأصل والمنبع، وردوا الحق إلى نصابه، شفى عيسى الصبي الذي كان يتقمصه الشيطان فبهت الجموع من عظمة الله، لم يندهش الناس من عظمة عيسى ولم يقدسوه ولم يؤلهوه، بل بهتوا من عظمة الله مصدر الآيات ومجريها على أيدي عيسى، واستقام ظهر المرأة المنحنية فسارت مستقيمة فمجدت الله، مجدت صاحب السلطان، وخالق عيسى الانسان، وشفى المفلوج ورأت الجموع ذلك فمجدوا الله الذي أعطى عيسى وغيره من المرسلين هذا السلطان على صنع المعجزات.

وأصدقاء عيسى وأخصاؤه الذين عرفوا مكانته وخبروا أدق أموره جهروا صراحة بأن معجزات عيسى وآياته هي من صنع الرحمن، وما عيسى إلا الأداة التي سخرها سبحانه لإظهار

(١) لوقا ١٨ : ٣٥ ـ ٤٣
(٢) لوقا ٧ : ١١ ـ ١٧

الأعاجيب للناس، هذا نيقود يموس أحد أشراف اليهود، وصديق عيسى الحميم، يشهد لعيسى بأنه مرسل من قبل اللهوبأنه لولا تأييد الله له لما استطاع أن يقوم بشيء من المعجزات يقول يوحنا: « كان إنسان من الفريسيين اسمه نيقود يموس رئيساً لليهود، هذا جاء إلى يسوع ليلاً وقال له: يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه»(1).

ونفس الحقيقة يعلنها للناس في صراحة بطرس، خليفة عيسى وصديقه الصدوق يقول بطرس: «أيها الرجال الاسرائيليون إسمعوا هذه الأقوال، يسوع الناصري رجل قد تبرهن من قبل الله، بقوات وعجائب صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون»(2) وعيسى نفسه النبي الصادق الأمين، لم يخدع الناس ولم يوهمهم أنه صاحب المعجزة أو مصدر الآية، بل كاشف الجموع بالحقيقة كاملة، ما هو إلا رسول سخره الله لخدمة الحق ومنحه المعجزات لتأييد رسالته.

بينما عيسى يسير في الطريق مع حوارييه إذ رأى إنساناً أعمى منذ ولادته، «وسأل الحواريون معلمهم، لماذا ولد هذا أعمى؟ هل لخطأ ارتكبه هو أم لذنب جناه أبواه؟ أجاب يسوع لا هذا أخطأ ولا أبواه، ولكن لتظهر أعمال الله فيه.. ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني»(3) إذا فالأعمال أعمال الله، والمعجزات من عند

---

(1) يوحنا ٣ : ١ ـ ٢

(2) أعمال الرسل ص ٢ : ٢٢

(3) يوحنا ٩ : ١ ـ ٥

الله، وليس أمام عيسى إلا أن ينفذ ما رسمه الله له، وأن ينجز العمل الذي كلفه سبحانه به.

ورواية أخرى يرويها لنا لوقا نرى فيها عيسى يدعو الناس إلى تمجيد الله الذي وهبه قدرة الشفاء ومن عليه بمكنة الابراء، يقول لوقا عنه: «وفيما هو داخل إلى قرية استقبله عشرة رجال برصى فوقفوا من بعيد، ورفعوا صوتاً قائلين: يا يسوع يا معلم ارحمنا، فنظر وقال لهم: أذهبوا وأروا أنفسكم للكهنة، وفيما هم منطلقون طهروا فواحد منهم لما رأى أنه شفي رجع يمجد الله بصوت غظيم، وخر على وجه عند رجليه شاكراً له وكان سامرياً، فأجاب يسوع وقال: أليس العشرة قد طهروا. فأين التسعة؟ ألم يوجد من يرجع ليعطي مجداً لله غير هذا الغريب الجنس؟ ثم قال له: قم وأمض إيمانك قد خلصك»[1].

هنا نرى عيسى يشفي عشرة رجال برصى. وقبل أن يقوم بشفائهم يأمرهم بالذهاب إلى هيكل اليهود وتقديم أنفسهم للأحبار والكهان، والابتهال إلى يهوه إله إسرائيل، وعندما يطيعون في الطريق يطهرون ويعود أحدهم إلى المعلم عيسى يشكره ويمجد الله رب عيسى، وهنا يفرح عيسى بالرجل الذي وضع الأمور في نصابها وأعطى لكل ذي حق حقه، فالمجد لله مصدر المعجزات، والشكر للانسان الذي اجرى الله على يديه المعجزة، ويأسف عيسى لأن باقي العشرة لم يفعلوا كما فعل هذا السامري الغريب عن السلالة اليهودية الأصيلة.

---

(١) لوقا ص ١٧ : ١١ ـ ١٩

خوف الفشل:

وعندما ذهب عيسى لاحياء لعازر، شقيق صديقتيه مريم ومرثا، نرى عيسى عندما يسمع بوفاة صديقه يضطرب وينزعج، ويحزن ويبكي على الراحل العزيز، وما هذا شأن الواثق من عمله، المطمئن إلى إنجاز مهمته بإعادة الحياة إلى صديقه، بل نرى عيسى يشخص بعينيه إلى أعلا ويبتهل إلى الله أن يستجيب له وألا يرفض طلبه، ولا يرد وجهه ويقيم صديقه من المـوت من أجله، ومن أجل الجموع الشاهدة لتؤمن بالله ورسوله عيسى، يحدثنا يوحنا عن هذه الأحداث وتلك المشاعر والمخاوف فيقول: «فلمـا سمع يسوع قال: هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله. وكان يسوع يحب مرثا وأختها ولعازر، فقالت مرثا ليسوع: يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي ولكني الآن أعلم أن كل مـا تطلب من الله يعطيك الله إياه.. ولما قالت هذا مضت ودعت مريم أختها سراً قائلة: المعلم قد حضر وهو يدعوك، أما تلك فلما سمعت قامت سريعـاً وجاءت إليـه،.. فلما رآهـا يسوع تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب، وقال: أين وضعتموه؟ فقالوا له: يا سيد تعال وانظر، بكى يسوع. فقال اليهود أنظروا كيف كان يحبه، وقال بعض منهم: ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت، فانزعج يسوع أيضاً في نفسه (خوف الفشل) وجاء إلى القبر، وكانت مغارة وقد وضع عليه حجر قال يسوع: ارفعوا الحجر، قالت له مرثا أخت الميت يا سيدي قد انتن لأن له أربعة أيام، قال لها يسوع: ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله، فرفعوا الحجر حيث كان

الميت موضوعاً ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجاً. فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطة بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل، فقال لهم يسوع: خلوه ودعوه يذهب»[1].

لم ينسب عيسى الخوارق والآيات التي أتاها إلى نفسه ولكنه ردها إلى صاحبها، إلى الله مرسله وخالقه، إلى قوة الله، فليس لعيسى من الأمر شيء، ولكن الأمر كله لله، هذه الحقيقة الكاملة، وهذا التسليم الكامل بالعجز أمام قدرة الله، يعلنه عيسى في صدق «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً»[2] هذا هو الحق، وهذا هو الصدق، فليس عيسى إلا الأداة والوسيلة التي سخرها الله لتحقيق أغراضه وإجراء المعجزات على يديه، ليؤمن الناس بالرسالة التي بعثه الله بها لخيرهم وسعادتهم وليصدقوا أنه رسول الله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

زهده فيها:

عرف عيسى أن هذه المعجزات التي سخره الله لأدائها ليست مقصودة لذاتها بل لدفع الناس إلى الإيمان بالرسالة، فهي ليست غاية في ذاتها وإنما وسيلة لحمل الناس على التصديق، ورغم ضرورتها في بعض الظروف والأوقات فإنها ليست الوسيلة

---

(١) يوحنا ص ١١ : ١ ـ ٤٤

(٢) يوحنا ص ٥ : ٣٠

المثلى لاقناع الناس بصحة الرسالة، وليست الطريقة المستحبة لارشاد البشر إلى طريق الله.

عرف عيسى هذه الحقائق وكان يأمل في إرشاد الناس إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة دون إرهاب أو تخويف، لذلك لم يكن يلجأ إلى تلك الوسائل إلا مضطراً كارهاً وبعد إلحاح الناس عليه وإصرارهم عليها، فهو يبدأ في القاء العظات على الناس شارحاً لهم جمال الطاعة ومغبة العصيان مبيناً لهم طريق الحق والصدق، فإذا استمع الناس وتنبهت عقولهم فرح عيسى وانشرح، أما إذا وجد أمامه قوماً عميت أبصارهم وختمت أفئدتهم، وران الصدأ والغباء على عقولهم وقلوبهم، فلا يؤمنون إلا بالخوارق والقوارع والأعاجيب، ولا يصدقون إلا القوة والارهاب والتخويف فلا مفر من الاتيان بمعجزة تصدع هؤلاء الغلف، وتردهم عن الغي والخلف.

يحدثنا يوحنا أن خادماً للملك كان ابنه مريضاً فأتى إلى عيسى وطلب منه أن يذهب إلى بيته ويشفي ابنه، وتبرم عيسى من طلب الرجل وضاق بأن تكون كل مهمته في الحياة تطبيب الناس وشفاء الأمراض «فقال له يسوع: لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب؟»[1] ولكن الرجل ازداد إلحاحاً ورجاء مما اضطر عيسى إلى الذهاب معه وشفاء ابنه، وهنا فقط آمن الرجل وأهل بيته برسالة عيسى.

وكثير ما نرى عيسى يزداد به الضيق والتبرم من هذا الأسلوب لحمل الناس على الإيمان فيرفض تماماً القيام بأي

---

(١) يوحنا ٤ : ٤٦ ـ ٥٣

معجزة مهما طلب القوم وألحوا في الرجاء، يروي مرقس قصة إحدى المرات التي أصر فيها عيسى على عدم اللجوء إلى المعجزة لفرض الإيمان على الناس، يقول مرقس: «فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجربوه فتنهد بروحه وقال: لماذا يطلب هذا الجيل آية، الحق أقول لكم لن يعطي هذا الجيل آية، ثم تركهم ودخل السفينة ومضى إلى العبر»[1].

بل كثيراً ما يصل الضيق والتبرم بعيسى إلى غايته، فلا يكتفي فقط بعدم القيام بالمعجزة بل ينحر طالبيها ويعنفهم، ويسبهم ويلعنهم على جهلهم وغبائهم، وعلى الحاحهم لحمله - وهو الرسول الكريم - على اللجوء إلى هذا الطريق، تقول الأناجيل «حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين: يا معلم نريد أن نرى منك آية، فآجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطي له آية»[2].

في هذه الحوادث المتكررة التي كثرت فيها روايات الأناجيل نرى عيسى زاهداً في هذا الأسلوب لحمل الناس على الإيمان ولارشادهم إلى طريق الله، بل نراه يضيق ويتبرم من هذه الوسيلة، ويرفض كثيراً اللجوء إليها أو استعمالها، مؤكداً أن طريق الله واضح مستقيم لكل من له عقل أو بصيرة، وأنه لا يحجب الله عن الناس إلا الفسق والفجور. وإلا الدنس والإثم، ولو تطهر الناس من شرهم وفسوقهم لما احتاجوا إلى الخوارق

---

(١) مرقس ص ٨ : ١١ ـ ١٣

(٢) متى ١٢ : ٣٨ ـ ٣٩ ، لوقا ص ١١ : ٢٩

لاكراههم على الإيمان، ولاهتدوا إلى الحق بعقولهم وفطرتهم السليمة.

يقول الكتاب الكريم **﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، وما أنا عليكم بوكيل﴾** (يونس ١٠٨).

المعجزة والإيمان:

ولنتساءل الآن. هل نجحت معجزات عيسى في حمل الناس على الإيمان، وهل أفلحت في إرشاد الناس إلى الطريق القويم؟ من المؤسف أن الوقائع قد اثبتت عكس ذلك، فلم تفلح المعجزة في إقناع المكابر، ولم تصلح الآية لتوجيه الغافل، ولم تجد القوارع في إرشاد من عميت أبصارهم وقلوبهم فعاشوا كالسوائم عن الحق غافلين. وتعترف الأناجيل بهذه الحقيقة. وتقرر في صراحة أنه لم يؤمن برسالة عيسى سوى نفر قليل: أما الكثرة الغالبة فقد أنكروا نبوته وحاربوه[1].

وليت الأمر اقتصر على الجحود والنكران، توقف عند الانكار والتكذيب، فلم يكتف القوم بذلك، لم يكتف اليهود بتكذيب عيسى وإنكار معجزاته، بل اعتبروا عيسى من الأنبياء الكاذبين والدعاة المخاتلين، الذين يلجؤون إلى الحيل والألاعيب لتأييد دعواهم، والذين يتحالفون مع المردة والشياطين لتدعيم شأنهم، كذبوا عيسى ونسبوا معجزاته إلى الجن والشيطان، بل جعلوه حليف «بعلزبول» رئيس الشياطين، انضوى عيسى تحت

---

(١) يوحنا ١٢ : ٣٧

لـوائه ليسخـر له قـوى مملكة الشيـطان، ويخدع بـألاعيبه بني الانسان.

تحدثنا الآناجيل أنه أحضر إلى عيسى مجنون أعمى وأخرس فشفاه عيسى فأبصر وتكلم ولما سمع اليهود بهذا الخبر «قالوا: هذا لا يخرج الشياطين إلا بعلزبول رئيس الشياطين»[1]

أنكر الناس معجزات عيسى، وعزاها بعضهم إلى الشيطان وتخفف البعض فأرجعها إلى دراية عيسى بالطب وتمرسه بشفاء الأمـراض والأوجاع، يقـول الصيدلي اليـوناني فيلمـون «عـاش الناصري بين قومه شيخاً للنطاسيين، ولم يكن غيره يعرف الكثير الذي وعاه هو عن الأجساد وعناصرها وخواصها، وكم من مرضى برئوا على يديه من أمراض استعصت على الاغريق والمصريين ويقال فيما قال: إن عيسى زار الهند وبلاد ما بين النهرين، وإن الكهنة في تلك البلاد قد أطلعوه على ما يعلمون من أسرار تتصل بالأجسام.. وكذلك يمسح (أبولو)[2] على القلب الفارغ (يقصد قلب عيسى) فينطقه بالحكمة»[3].

ورأي ثالث ينكر المعجزات أكثر مما يؤيدها، وعزوها إلى الايحاء والوهم أكثر مما يعزوها إلى اليقين والواقع، يقول ول ديورانت: «أكبر الظن أن هذه المعجزات كانت تحدث في أكثر الأحوال بقوة الايحاء أي بتأثير روح قوية واثقة من نفسها، في

---

(١) متى ١٢ : ٢٣ ـ ٢٤

(٢) أحد آلهة اليونان في العهد الوثني

(٣) أنظر : جبران خليل جبران ـ عيسى ـ ترجمة ثروت عكاشة ص ٢٠

روح قابلة للتأثر. . وهناك عاملان يدلان على أن هذه المعجزات ظاهرة نفسانية، أولهما أن المسيح نفسه كان يعزو شفاء المرضى على يديه إلى «إيمان» من يشفيهم وثانيهما عجزه عن القيام بمعجزات في الناصرة، لأن أهلها فيما يظهر كانوا ينظرون إليه على أنه «ابن النجار» ولا يؤمنون بقواه غير العادية. . ويقال لنا عن مريم المجدلية إن سبعة شياطين قد أخرجت منها، أي أنها كانت تشكو آلاماً ونوبات عصبية (ويذكرنا هذا باعتقاد البعض أن الشياطين تتقمص أجسام الناس) والظاهر أن هذه الآلام كانت تخف في حضرة عيسى، ومن أجل هذا كانت تحبه لاعتقادها أنه أعاد إليها الحياة، وأن قربه منها كان أمراً لا غنى عنه لسلامة عقلها، أما إبنة بايروس فقد قال المسيح عنها صراحة إن البنت لم تمت بل كانت نائمة ولعلها كانت مصابة بالشخوص (التخشب) أو داء الثبوت وهو مرض عصبي يفقد الارادة وتصلب العضلات سببه مرض الجهاز العصبي المركزي، ويبدو أن عيسى نفسه كان يحس بخور نفساني بعد أن يقوم بمعجزاته، وأنه كان يحاولها وهو كاره»[1].

أنكر اليهود معجزات عيسى وعزاها بعضهم إلى السحر والشعوذة وإلى الجن والشياطين وإلى النطس والطب. وإلى الايحاء والوهم، وصدق الناس هذه الشائعات والترهات، صدقوا الشائعات التي طمست معجزات عيسى وأنكرتها عليه، وأنصتوا إلى الترهات التي عزتها إلى العرافة والكهانة.

وكاد حساب المعجزات يحسب على عيسى وليس له،

---

(١) ول ديورانت ـ قصة الحضارة، جـ ٣، ترجمة محمد بدران ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

ويضاف إلى أخطائه لا إلى حسناته، لولا أن صوت الحق ارتفع مدوياً يؤيد معجزات عيسى ويؤيد نسبتها إلى الله، لا إلى المردة أو الشياطين أو السحرة أو الطب أو الإيحاء، يؤيدها جميعاً ويذكر منها ما فات الأناجيل ذكره، وهنا يصمت المنكرون، وينقطع دابر المتشككين حين يورد القرآن الكريم قول عيسى لقومه بني إسرائيل، **﴿ أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾**[1] .

يأتي القرآن حديث الرحمن فيرفض مجاراة المتشككين، ويسد أفواه المكذبين، ويرفع عن عيسى شبهات المضللين، وتأولات العابثين الذين لمزوه بالسحر والشعوذة، ورموه بالافك والعرافة، واتهموه بمعاقدة الشيطان، يأتي القرآن فيمحو عن عيسى هذه التهم والأباطيل ويشيد بمعجزاته التي أيده الله بها، كخلق الطير من الطين والأنباء بالغيب كل ذلك ذكره القرآن لعيسى فأعز به قدره، ورفع به شأنه، وجعله نعم الرسول الصادق الأمين.

معجزات الآخرين:

ونتساءل.. هل اختص الله نبيه عيسى فقط بصنع الخوارق؟ أم أنه سبحانه قد منح القدرة لعديد من أنبيائه الآخرين لتكون

---

(١) سورة آل عمران ٤٩

دليلاً على صدقهم. ومعيناً لهم في صراعهم ضد المناوئين والمكذبين؟

الحقيقة التي تؤكدها كافة الكتب السماوية أن الله سبحانه قد أيد أنبياءه بمعجزات عديدة، كل ذلك بحسب الزمان الذي بعث فيه ذلك النبي وحسب طبيعة الشعب الذي أرسل إليه، معجزات من جنس ما برع فيه ذلك الشعب في ذلك الزمان، من نفس الجنس ولكن تفوقها في المرتبة درجات، برع قوم عيسى في الطب فأرسل إليهم النطاسي البارع، وبرع قوم موسى في السحر فأرسل إليهم المبهر القارع. وبرع العرب في اللغة فأرسل إليهم البليغ الجامع. وهكذا في سائر الأنبياء يؤيدهم الله بمعجزات تفوق ما برع فيه قومهم، حتى يصدقهم الناس ويصدعوا بالدليل والبرهان.

معجزات الكاذبين:

إتيان المعجزات والأعاجيب لم يقتصر على عيسى وأتباعه أو سائر الأنبياء، بل لقد استطاع أفراد كثيرون شفاء الأمراض وإتيان الخوارق، وأتى إليهم الأتباع من كل حدب وصوب يتمسحون بمنازلهم ويتبركون، ويتلمسون منهم الدعوات والبركات، بعض هؤلاء أولياء الرحمن وأكثرهم أولياء الشيطان، يصنعون خوارق تذهل العقول وتشده الأبصار يسيرون على النار ويأكلون الزجاج، ويقطعون الأجساد بالسيوف ثم يجمعون الأشلاء، ويعيدون تكوين الانسان ويردون الروح، ويشفون مختلف الأمراض ويضربون الناس بالأمراض ومختلف أنواع الايذاء.

هؤلاء الكاذبون، أنبياء الجان، وأولياء الشياطين، ضل من أفعالهم الكثيرون، وآمن بقدرتهم الكثيرون، خدعتهم الآية وأسكرتهم الخارقة فانساقوا إلى الإيمان بهؤلاء المخادعين، المخاتلين، وانضووا تحت لوائهم وانخرطوا في طاعتهم، ورفعوهم إلى مرتبة النبوة بل قدسوهم ومجدوهم وألهوهم.

ويعترف عيسى نفسه بهذه الحقيقة، ويحذر الناس من الانسياق وراء هؤلاء الكاذبين الذين يدعي كل منهم أنه نبي الله أو أنه مسيح الله، وأنه بعض الله أو ذات الله، ثم يخدع الناس بآياته ومعجزاته، ويضلل حتى المؤمنين والمختارين، يقول عيسى: «سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات وعجائب لكي يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً[*][1]».

ويقول أيضاً: «ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين[2]». فهل هؤلاء جميعاً آلهة؟...

معجزات محمد ﷺ:

في غزوة الأحزاب كان المسلمون قد أصابتهم مجاعة

* يقول مرقس عن المسيح: «إن قال لكم أحد هوذا المسيح هنا أو هوذا هناك فلا تصدقوا لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة». (مرقس ١٣ : ٢١).
معنى هذا أنه سيكون هناك من يدعون النبوة ويزعمون أنهم المسيح. وهذه العبارة دالة على نبوته. إذ لم يقل إنهم سيدعون الألوهية ويزعمون أنهم الإله الابن ولكن قال بأنهم سيدعون النبوة.

(١) مرقس ص ١٣ : ٢٢
(٢) متى ص ٢٤ : ١١

شديدةوكان أهلوهم يبعثون إليهم بما قدروا عليه، فأرسلت عمرة ابنة رواحة ابنتها بحفنة تمر عجوة في ثوبها إلى زوجها وأخيها، فوجدت الرسول جالساً في أصحابه، فأخذه في كفيه ونثره على ثوب بسيط له وقال لجعال بن سراقة: أصرخ يا أهل الخندق، هلم إلى الغداء، فاجتمعوا عليه يأكلون منه، حتى صدر أهل الخندق وإنه ليفيض من أطراف الثوب(*).

وفي غزوة تبوك تتكرر معجزة الاشباع، أرمل الناس إرمالاً شديداً[1] فنادى منادي الرسول: من عنده فضل زاد فليأت به، وأمر بالانطاع فبسطت، فجعل الرجل يأتي بوعاء الدقيق أو السويق أو التمر وكل ذلك قليل، ثم توضأ وصلى ركعتين ودعا الله، ونادى مناديه: هلموا إلى الطعام خذوا منه حاجتكم، فأقبل الناس فجعل كل من جاء بوعاء ملأه وأخذ الناس يتزودون حتى نهلوا عن آخرهم، حتى كان آخر ذلك أن أخذت الانطاع ونثر ما عليها[2].

وعن أنس بن مالك أن النبي عليه السلام أطعم ثمانين رجلاً من أقراص من شعير أتى بها أنس تحت إبطه(**).

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قال: كنا عند النبي

---

* رواه البيهقي عن ابن إسحاق وفيه انقطاع أنظر البداية والنهاية ٤/ ٩٩ لإبن كثير

(١) أي نفذ الطعام.

(٢) أنظر المقريزي إمتاع الأسماع ص ٢٣٥

** أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة ٦/ ١٩٧ ومسلم في الأشربة رقم (٢٠٤٠) والموطأ ٢/ ٩٢٧ والترمذي (٣٦٣٤) في المناقب.

ثلاثين ومائة وسوى لنا شاة، ثم أعطى لكل منا حزة أي قطعة، ثم جعل منها قصعتين فأكلنا أجمعون وفضل في القصعتين(*).

ضرب موسى الصخر بعصاه فانفجر منه الماء، أما محمد فقد نبع الماء من بين أصابعه فارتوى الناس وتوضأوا واغتسلوا مرات ومرات..

عن أنس بن مالك أنه قال: رأيت رسول الله وقد حانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوا ماء فأتى الرسول بإناء فوضع يده فيه، وأمر الناس بأن يتوضأوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس عن آخرهم(**).

كما يروي الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله أنه قال: «عطش الناس يوم الحديبية والنبي بين يديه ركوة [1] فتدافع الناس نحوه؟ فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كناخمس عشرة مائة(***).

وفتح عيسى عيني الأعمى، وأتى محمد بنفس المعجزة عن حبيب ابن فديك أن أباه ابيضت عيناه فكان لا يبصر بهما شيئاً، فنفث رسول الله في عينيه فأبصر، فرأيته يدخل الابرة وهو ابن

---

* أخرجه مسلم (٢٠٦٥) كتاب الأشربة والبخاري ٣/١٤١ .

* * أخرجه مسلم ح (٣٠١٣) كتاب الزهد والرقائق

(١) قليل من الماء .

* * * أخرجه البخاري ٥ / ٦١ باب غزوة الحديبية ، والدارمي ١ / ١٣

ثمانين(*). أما النبي عليه الصلاة والسلام، فقد أُخبر بالشاة المسمومة التي أهدتها إليه زينب بنت الحارث، فجلس وأصحابه حولها ليأكلوها، وتناول النبي الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، وكان بشر ابن البراء معه قد تناول منها مثل ما تناول فأما بشر فأساغها وازدردها وأما الرسول فلفظها وهو يقول: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم دعا زينب فاعترفت وقالت: لقد بلغني من قومي (اليهود) ما لم يخف عليك فقلت: إن كان ملكا استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر، ومات بشر من أكلته هذه(*).

ويشاء العلي القدير أن يؤيد رسوله الكريم بالمعجزات التي تدفع أذى الكفار، وترد غوائل شرورهم، عزم المشركون على قتل الرسول وأحمعت القبائل على ذلك، فترك محمد لهم مكة وهاجر وصاحبه أبو بكر إلى المدينة، وفي الطريق لاحقهما الكفار، فلجأ الصاحبان إلى غار ثور، يستريحان فيه قليلاً من عناء الطريق، وأقبل بعض الكفار يتسلقون الغار، ثم عادوا أدراجهم، فسألهم أصحابهم: ما لكم لم تدخلوا الغار ولم تنظروا فيه؟ قالوا: إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد فعرفنا أن ليس فيه أحد فانصرفنا(**)

هذه المعجزة ذات دلالة كبيرة، فقد أراد الله حماية رسوله

* أخرجه البخاري في كتاب الطب ٧ / ٣٢ باب ما يذكر في سم النبي ﷺ و ٤ / ٦٦ كتاب الجزية باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يُعفى عنهم. ورواه أحمد في المسند ٢ / ٤٥١ والدارمي في المسند ١/٣٣ - ٣٤

** أنظر المسند للإمام أحمد ١/٣٤٨. وقد حسّنه ابن كثير في البداية ٣/١٨١ وابن حجر في الفتح ٧/١٨ وقال الألباني: في تحسينه نظر. أنظر فقه السيرة ١٧٣.

ونصرة دعوته، حتى إذا لجأ النبي وصاحبه إلى الغار أسرعت العنكبوت إلى نسج بيتها تستر به من في الغار، حدث كل ذلك في فترة قصيرة لا تتجاوز ساعات، وقانون الطبيعة يجعله محتاجاً إلى سنوات. يقول القرآن للكافرين: ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا، والله عزيز حكيم**﴾[1].

وبعد خروج محمد وصاحبه من الغار لحق بهما أحد الكفار بسلاحه وفرسه فلما دنا سراقة منهما دعا عليه الرسول، فرسخت أقدام فرسه في الأرض. فصرخ سراقة إلى الرسول: يا محمد ادع الله أن ينطلق فرسي فارجع عنك وأرد من ورائي فدعا الرسول ربه فأطلق سراقة وفرسه فرجع(*)،وهنا وقفة صغيرة.. كافر يلاحق الرسول بسلاحه وفرسه يبغي قتله والقضاء على دعوته، وبدلاً من أن يدعو محمد ربه فينزل ناراً من السماء تحرق الرجل كما فعل نبي اليهود إيليا، أو يدعو على الرجل بالموت كما فعل بطرس خليفة عيسى، يكتفي الرسول الكريم بالدعاء لربه أن يكف عنه أذى الرجل وأن يوقف شره حتى يتم دعوته، ولو أن الرسول دعا على الرجل بالاحراق أو الموت لكان له عذره، فهذا الكافر أتى

---

(١) سورة التوبة ٤٠

* أخرجه البخاري ٤/ ٢٥٢ كتاب المغازي (باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة) . والحاكم في المستدرك ٣/ ٧ . وأنظر البداية والنهاية ٣/ ١٨٥ والسيرة النبوية لابن كثير ٢٤٦ والاصابة ٢/ ١٨

وراءه يبغي قتله فاستحق أن يرتد سهمه إلى نحره وأن يهلك جزاء جرمه. بل إن الرسول الكريم حين علم بعدول سراقة عن قصده ورجوعه إلى رشده، دعا الله فأطلقه وفرسه فعاد سالماً إلى أهله.

ومعجزة عظيمة أخرى اختص الله بها نبيه محمداً وفضله بها وبغيرها على سائر الأنبياء، تلك هي معجزة الاسراء والمعراج، فبينما كان الرسول نائماً على فراشه بمكة إذ أتاه جبريل فأيقظه وخرج معه، فإذا أمامهما دابة بيضاء تدعى البراق، ركبها الرسول وجبريل خلفه، وطارت بهما الدابة حتى انتهيا إلى بيت المقدس، فوجد فيه الرسول نفراً من إخوته الأنبياء بينهم إبراهيم وموسى وعيسى فصلى الرسول بهم إماماً. يقول القرآن عن معجزة الاسراء **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير﴾**[1].

وعندما انتهى الرسول من الصلاة في بيت المقدس، عرج به جبريل إلى السماء، وأخذ يرتقي السموات السبع سماء سماء، حتى تجاوزها، إلى سدرة المنتهي، وإلى قاب قوسين أو أدنى من العرش العظيم، هناك حيا الرسول ربه: التحيات لله، والصلوات والطيبات. وأجاب الرحمن مصطفاه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. وقال الرسول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن

---

(١) سورة الإسراء : ١

محمداً عبده ورسوله. وفي هذه اللحظات الخالدة التي وقفها محمد عليه الصلاة والسلام بين يدي رب العزة والجلال فرضت الصلوات الخمس على الأمة الإسلامية(*).

ويتحدث القرآن عن معجزة المعراج **﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلّى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى؟ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾**[1]. (**)

---

* أخرجه البخاري ٤ / ٤٢ كتاب مناقب الأنصار (باب المعراج). وغيره.

(١) النجم ١ - ١٨.

** مع ما ذكره المؤلف من معجزات النبي محمد ﷺ فاني أضيف إلى ذلك المعجزة الخالدة التي أيده الله بها والتي باقية إلى قيام الساعة الا وهي معجزة القرآن الذي تحدى العرب آنذاك على أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك وبقي هذا التحدي إلى قيام الساعة ولا يزال الناس يكتشفون فيه آيات ومعجزات علمية وكونية تزيد المؤمنين به إيماناً إلى إيمانهم حتى إن البروفسور موريس بوكاري ليقول بعد مقارنة طويلة بين القرآن ومعطيات العلم الحديث: «كيف أمكن لمحمد عليه السلام أن يتناول قبل أربعة عشر قرناً حقائق علمية في القرآن لم يكتشفها إلا التقدم العلمي في القرون الحديثة، لولم يكن القرآن وحياً منزلاً لا شك فيه، ولا ارتياب في نصوصه». كتاب القرآن والتوراة والانجيل في ضوء العلم الحديث. صفحة ٢٧٧.

الفصل الرابع

رسالة المسيح

بعث الله عيسى نبياً إلى بني إسرائيل ، وأرسله برسالة خاصة اقتصرت عليهم وخدهم دون سائر الشعوب .

وبنو إسرائيل كما هو معروف أشد الشعوب تعصباً وعنصرية ، وتصلتاً وعصبية ، فهم في نظر أنفسهم الشعب المقدس ، وأما الباقون فرجاس متدنسون « للأجنبي تقرض بربا ، ولكن لأخيك فلا تقرض بربا »[1] . ﴿ ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ (آل عمران ٧٥) .

وعيسى نبي اليهود ، تربى بينهم وعاش في وسطهم ، أحب

---

(١) تثنية ص ٢٣ : ١٩

قومه وأغدق عليهم وحسبما تروي الأناجيل من أنه قبل ميلاد عيسى كثرت النبوءات التي وصفته بأنه محرر إسرائيل ومدبر شئونها وراعي شعبها ، يقول متى مخاطباً بلدة بيت لحم المدينة التي ولد فيها عيسى ، والتي أنجبت من قبله أباه داود وولد فيها قبلهما يهوذا أحد أبناء يعقوب الإثني عشر أسباط إسرائيل . يقول متى على لسان الله «وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا، لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل»[1]. وعندما بشر الملاك مريم بولادة غلامها الذكي، أعلنها بوعد الله بأن يجعله ملكاً على إسرائيل وخليفة لجده الملك داود ، يقول لوقا عنه « ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ، ولا يكون لملكه نهاية »[2] .

ويبدأ عيسى دعوته فيعلن في صراحة ووضوح أن رسالته مقصورة على بني إسرائيل ولا تمتد إلى غيرهم ، يقول عيسى « لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة »[3] ويقول أيضاً « وقد أقامني الله نبياً على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء »[4] .

حفظ عيسى الشريعة اليهودية التي جاء ليكملها ، واحترمها

---

(١) متى ص ٢ : ٦

(٢) لوقا ص ١

(٣) متى ١٥ / ٢٤

(٤) انجيل برنابا ص ٥٢ : ١٣

وأكبرها وقدسها بحيث من الأهون عليه أن تزول السماء والأرض ، وكل مخلوقات الله وموجودات الكون . ولا يزول حرف أو كلمة من الناموس الإسرائيلي . يذكر لوقا أن المسيح يقول : « زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس »[1] .

ويحرص اليهود على الإنعزال عن باقي الأمم ، وعلى عدم الإختلاط بباقي الشعوب ، قد يتعاملون مع الناس تعامل المصالح والمنافع ، ولكنهم لا يختلطون بهم ولا يمتزجون . حرصاً على عدم تلوث الشعب المقدس بالشعوب الأخرى . وعلى صفاء الدماء الكهنوتية الملوكية ، جاء بعض الرؤساء يوماً إلى النبي عزرا يخبرونه أن نفراً من اليهود صاهروا بعض الشعوب المجاورة ، وكان هذا الخبر كافياً لأن بفقد النبي صوابه ويطير عقله ، يقول عزرا « ولما كملت هذه تقدم إلى الرؤساء قائلين : لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون عن شعوب الأراضي حسب رجاساتهم من الكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعمويين والموآبيين والمصريين والأموريين لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضي ، وكانت يد الرؤساء والولاة في هذه الخيانة أولاً ، فلما سمعت بهذا الأمر مزقت ثيابي وردائي ونتفت شعر رأسي وذقني وجلست متحيراً »[2] .

---

(١) لوقا ص ١٦ : ١٧

(٢) عزرا ٩ : ١ ـ ٤

ويؤكد بطرس هذه الدعوة العنصرية لدى اليهود ، فيقول « أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودي أن يلتصق بأحد أجنبي أو يأتي إليه »[1] .

وقد اختار عيسى إثني عشر تلميذاً ليكونوا أحباءه وأخصاءه ومساعديه في نشر دعواه ، ويعد عيسى تلاميذه بأن يكونوا أعلى مقاماً من أسلافهم الأسباط وأن يجلسوا قضاة يدينون الإثني عشر سبطاً ، ذلك أن بطرس وأصحابه ساوموا عيسى سائلين عما سيحصلون عليه من كسب نتيجة تركهم أعمالهم وشباكهم وسيرهم وراءه ، ويجيبهم عيسى بأن مكافأته لهم على ذلك هو تعيينهم حكاماً وقضاة في الملكوت يدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر ، وينقل متى هذه المحاورة بين عيسى وأسباطه فيقول « فأجاب بطرس حينئذ وقال له : ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك ، فماذا يكون لنا ؟ فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم : إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد ، متى جلس ابن الإنسان « عيسى » على كرسي مجده ، تجلسون أنتم أيضاً على إثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر » .[2] *

يقول بولس الياس في كتابه (يسوع المسيح) « إن المسيح قد اختار إثني عشر رسولاً ليعاونوه في تأسيس الكنيسة وذلك إشارة

---

(١) أعمال ١٠ / ٢٨

(٢) متى ١٩ : ٢٧ ـ ٢٨

* وهذا الوعد لم يتحقق منه شيء . فقد بقي المنسوبون إلى المسيح عليه السلام مضطهدين ملاحقين حسبما تذكره المصادر النصرانية نفسها.

إلى أسباط إسرائيل الإثني عشر ليكون أولئك كهؤلاء آباء روحيين لشعب الله » .

ويرسل عيسى تلاميذه لينشروا دعوته بين اليهود ، وليعاونوه في تبليغ رسالته فيكرر لهم الوصية بأن يقصروا الدعوة على اليهود ، ويحذرهم من دخول مدن الأمم والشعوب الأخرى ، ولو كانوا جيران اليهود ، يقول عيسى لتلاميذه « إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل إذهبوا بالحري إلى خراف بني إسرائيل الضالة »[1] .

قصرت نصوص الأناجيل دعوة عيسى على بني إسرائيل ووقفت رسالته عند هداية الضالين منهم . أما باقي الأمم والشعوب وسائر الأجناس والألوان ، فلا شأن لرسالة عيسى بهم ولا علاقة بينها وبينهم * . فلم تأت الرسالة إلا لأبناء إسرائيل ،

---

(١) متى ١٠ : ٥ - ٦

* وإذا كانت دعوة المسيح قاصرة على بني إسرائيل وحدهم دون غيرهم من الأمم فإن إقامة مراكز التبشير بالنصرانية بين المسلمين والوثنيين وغيرهم تكون مخالفة لوصية المسيح عليه السلام وتعاليمه .

بل وطريقة تنصيرهم للمسلمين مخالفة لتعاليم أي دين وأية ملة - لا تعاليم المسيح فحسب - إذ لا يكثر نشاطهم ولا يرتكز وجودهم إلا في البيئات الفقيرة التي تعاني من الجوع والفقر ، حيث يشترون دين الواحد من هؤلاء الجائعين باللقمة يضعونها في فمه . أما في أوروبا - حيث تفشى الإلحاد والمجون والمروق عن كل مبادىء الأديان وحيث الأجدر بالمبشرين أن يعملوا لإصلاح أوضاع اخوانهم من النصارى الذين هم من بني إسرائيل أيضاً - فلا يستطيعون أن يوقفوا هذا الإنحلال والكفر الجاري هناك لأن تناقضات وأخطاء النصرانية - أضف إلى ذلك سوابق الكنيسة المرّة - جعلت المبشرين يخافون من مواجهة الملحدين الذين لا يفتأون يعرّضون بأخطاء النصرانية ويذكرون الناس بجرائم الكنيسة الماضية والتي اقترفتها =

ولم تخاطب سواهم . لهذا فليس من حق أحد غير الإسرائيليين اعتناق الرسالة العيسوية ، أو السير على نهج الشريعة اليسوعية، ومن يفعل ذلك من غير بني إسرائيل فإنما يخالف تعاليم عيسى نفسها ، وتعاليم الله الذي قصر الرسالة على الإسرائيليين ، ومن واجب كافة الأجناس والشعوب غير الإسرائيلية ألا يغتصبوا حقاً ليس لهم . وألا يتمسكوا برسالة أنزلت إلى غيرهم ، بل حرمت عليهم ، وحرمت مصاهرتهم ، أو حتى الإختلاط بهم . حقيقة يعلنها عيسى لتلاميذه في صراحة « لا تعطوا القدس للكلاب ، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير » (متى ٧ / ٦) . والكلاب

= تجاه النهضة العلمية التي نشطت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لذا كان تنصير المعدومين ثقافياً واقتصادياً أيسر عليهم من الأمر الأول ولو كان ذلك مخالفاً لوصية المسيح التي تقتضي منهم دعوة بني إسرائيل وحدهم دون سائر الأمم والشعوب .

وفي الحقيقة أن هذه الحركة التبشيرية التي تقوم بها الكنيسة ليست إلا بمثابة الساعد الأيمن أو الأداة للإستعمار الغربي الذي زودها بكل ما تحتاجه ليس حرصاً منه على دينٍ أو مذهب وإنما طمعاً في استغلال مقدرات الأمم والشعوب وتملك ثروات البلاد .

ويتحدث عن هذه الحقيقة البروفسور جون هيل ـ أستاذ علم اللاهوت في جامعة برمنغهام قائلاً : « وفيما يخص السياسة التبشيرية القديمة في محاولة تنصير العالم التي سارت على الطرق الواسعة التي فتحتها أسلحة الغرب وتجارته ، يمكن أن نرى الآن أنها فشلت . وكل أمل في تجديدها قد استبعد تماماً بانتهاء عهد الإمبريالية الغربية السياسية والدينية . ومن الآن فصاعداً على الإرساليات التبشيرية العاملة في أراض يسيطر عليها واحدة من الديانات العالمية الأخرى أن تستند إلى الجاذبية الإيجابية لشخص يسوع وتعاليمه . . وليس على سلطة ثقافة هجينة تحاول فرض نفسها على شعوب ضعيفة سياسياً ومتخلفة إقتصادياً » .

(كتاب أسطورة تجسد الله في المسيح ـ نقلاً عن مجلة الأمة عدد ٤) .

والخنازير هم كل الشعوب الأخرى التي ليست من أبناء صهيون .

ومما يؤسف له ما تصوره بعض الأناجيل من اتسام معجزات عيسى بالعنصرية والتعصب ، فهذه امرأة عربية كنعانية من نواحي صور وصيداء ترى عيسى يسير في الطريق ومعه تلاميذه فتسرع وراءه ترجوه أن يشفي إبنتها المجنونة . . . إرحمني يا سيد يا ابن داود ، إبنتي مجنونة جداً ، ولكنه يشيح عنها بوجهه ويمضي ولا يجيبها بكلمة ، وتلهث المرأة وراءه ويزداد توسلها حتى يرق لها قلب التلاميذ فيطلبون من معلمهم إجابتها إلى طلبها منعاً من مضايقتهم «وطلبوا إليه قائلين : إصرفها لأنها تصيح وراءنا » . ولكن عيسى يذكرهم بأن رسالته وقدرته وكافة معجزاته مقصورة على الشعب المختار ، وليس فيها شيء للشعوب الأخرى ، ويشق رجاء المرأة المسكينة فتهرع إلى عيسى وتسجد له طالبة شفاء إبنتها ولكن عيسى ينهرها قائلاً « ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب » والبنون هنا هم شعب إسرائيل أبناء يهوه ، أما الكلاب فهم باقي الأمم والشعوب ! وعلى ضيق المرأة بهذه الألفاظ الجارحة ، وهذا التحقير الكريه لقومها وشعبها فإن لهفتها إلى شفاء إبنتها جعلتها تقبل هذا النعت الحقير لها ولقومها بالكلاب ، فردت على عيسى رداً كله حكمة ، رداً أرضى فيه نزعة الإسرائيلي كما تصوره هذه الأناجيل ، ورغبته في تسلط قومه الأرباب على سائر الشعوب الكلاب ، قالت المرأة « نعم يا سيد ، والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها » قبلت المرأة أن تكون وشعبها كلاباً لإسرائيل وأن يكون أبناء صهيون أرباباً وأسياداً لهم ، وهنا طالبت عيسى بحق

الكلاب ، فتات الموائد وسقط المعجزات الذي يلفظه الأسياد ، خذوا الخبز وألقوا إلينا بالفتات ، وكان لكلمات المرأة الحكيمة وقع السحر على عيسى وتلاميذه ، لقد أرضت غرور الإسرائيليين وزهوهم وتكبرهم ، فشفى عيسى إبنة المرأة [١] .

قصة تنال منا كل عجب، ولكنها إذا قورنت بما عليه أبناء يهوه من صلف وخيلاء، وما يؤمنون به من طائفية وتحيز لكانت شيئاً يسيراً، ونحن نؤمن بأن مثل هذا التصرف لم يصدر من نبيّ الله عيسى عليه السلام.

ويأتي عيد الفصح[٢] أكبر أعياد اليهود، ذكرى خروجهم من مصر ونجاتهم من فرعون عندما أرسل يهوه ملاكاً أباد أبناء المصريين، فلما مر ببيوت العبرانيين ورأى على أبوابها دم الحمل الفصحى جاز منها وعبر، أما بيوت المصريين فدخل فيها وقتل أبناءهم الأبكار[٣] .

ولخروج بني اسرائيل من مصر قصة، ننقلها عن مقال لنا بمجلة منبر الاسلام «استعد بنو إسرائيل لترك مصر، واتفقوا على أن يتسللوا منها في جنح الظلام، حاملين معهم ثرواتها وخيراتها وكل ما تصل إليه أيديهم وبكل وسيلة، بالسرقة والسلب، والخديعة والنهب، وأكثر من ذلك لقد أشركوا الله في مؤامرتهم الدنيئة، فجعلوه مدبرها وراعيها والداعي لها، لقد دس بنو

---

(١) أنظر متى : ١٥ ـ ٢١ ـ ٢٨، مرقس ص ٧: ٢٤ ـ ٣٠.

(٢) الفصح كلمة عبرية معناها الإجتياز أو العبور .

(٣) أنظر خروج ص ١٢ : ١٥ ـ ٢٧

إسرائيل في توراتهم وفي كتبهم المقدسة نصوصاً مزيفة نسبوها إلى الله رب العالمين، يدعوهم فيها إلى سلب المصريين الذين أحسنوا إليهم، وإلى نهب ثرواتهم وأموالهم، تروي التوراة في الاصحاح الثالث من سفر الخروج قول الله لبني إسرائيل «فيكون حينما تمضون أنتم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة، وأمتعة ذهباً وثياباً، وتضعوها بينكم وبناتكم لتسلبوا المصريين.

وينفذ بنو إسرائيل وصية يهوه إله إسرائيل، فيسلبون المصريين ما أعاروه إياهم بنية حسنة من أموال وخيرات: تقول التوراة إنهم طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهباً وثياباً، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم.. فسلبوا المصريين»[1].

هكذا تتم المؤامرة تحت رعاية الله الذي يدبر لشعبه المختار سلب شعب مصر الكريم، الذي آواهم مئات السنين، وأغدق عليهم خيرات أرضه، وانقذهم من الهلاك والضياع، فكافأوه بسلب ثرواته ونهب أمواله»[2].

يحدثنا الأب لويس برسوم عن مراسم الاحتفال بعيد الفصح في زمن عيسى فيقول «كان عيد الفصح أكبر أعياد اليهود وسمي أيضاً بعيد الفطير، وقد تطور الاحتفال به على مر السنين، وأهم

---

(١) خروج ص ١٣

(٢) أنظر مقالنا التوراة بين الزيف والحقيقة :

مجلة منبر الإسلام عدد جمادى الأولى سنة ١٣٨٧ هـ ص ١٣٦ وما بعدها .

الطقوس الجديدة في العشاء الفصحي على عهد المسيح أن تدار أربع كؤوس خمر وتدار طسوت ماء لغسل الأيدي بعد الكأس الأولى تذكاراً لعبور البحر الأحمر(١).

ومن اليوم السابق على الفصح، يأتي عيسى إلى أورشليم عاصمة إسرائيل، ويدخل إليها راكباً جحشاً صغيراً فيستقبله أتباعه بسعف النخيل وأغصان الأشجار، فرحين مهللين بمخلص إسرائيل ومليكها المنتظر، ويعلو صياح الأتباع ويشتد هتافهم لعيسى وتحياتهم وبركاتهم له.. السلام لك يا ملك اليهود.. مبارك الملك الآتي باسم الرب.

وعن حديث عيسى مع المرأة السامرية عند البئر، يقول يوحنا: «قال لها يسوع: أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أما نحن(*) فنسجد لما نعلم، لأن الخلاص من اليهود(٢).

ورغم إنكار اليهود لعيسى وتكذيبهم إياه، يظل حتى النهاية جاعلاً إياهم خاصته وأحباءه مهما رفضوه ورذلوه، يقول عنه يوحنا «إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله»(٣).

ويناجي عيسى عاصمة بلاده راجياً أن يضم أولادها إلى صدره وأن يحنو عليهم كما تحنو الدجاجة على صغارها، يقول

---

(١) لويس برسوم ـ حياة يسوع جـ ٢ ص ١٤٢

* قول عيسى: «نحن نسجد لما نعلم» جدير بالتدبر، فإنه جعل نفسه من جملة الساجدين. ولو كان إلهاً فلمن يكون سجوده حينئذٍ أيعقل أن يسجد الإله لآخر؟!!.

(٢) يوحنا ٣: ١٥ ـ ٢٢.

(٣) يوحنا ١/ ١١.

لأورشليم «كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها»[1].

وبعد عيسى يأتي خليفته بطرس فيؤكد لليهود أن عيسى ما جاء إلّا لخلاصهم وغفران خطاياهم يقول بطرس عن عيسى « هذا رفعه الله بيمينه ومخلصاً ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا»[2] ويستطرد بطرس قائلاً أن رسالة عيسى قد اقتصرت على أبناء اسرائيل «الكلمة التي أرسلها الله إلى بني إسرائيل يبشر بالسلام يسوع المسيح»[3].

وقد ظل التلاميذ حتى النهاية يعتقدون أن ملكوت الله يأتي بتحرير إسرائيل من قبضة الرومان وبفرض سيطرتها على دول العالم، فحين كان يحدثهم عيسى عن موعد حلول ملكوت الله سألوه قائلين: هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل (أعمال ص ١ - ٦) ثم يأتي بولس العدو السابق فيبتهل دواماً لتحرير إسرائيل «أيها الأخوة مسرة قلبي وطلبي إلى الله لأجل إسرائيل هي للخلاص» (رومية ص ١٠ - ١).

ولكي نطلع على سر العنصرية البغيضة والطائفية الكريهة التي ينادي بها الاسرائيليون، والتي أخذتها عنهم الأمم الاستعمارية، فعاملت خلق الله معاملة السوائم، نعود بأنفسنا إلى الماضي، إلى عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة حيث عاشا معاً زمناً طويلاً، وامتد بهما العمر حتى شاخا، ولم تنجب سارة لابراهيم غلاماً فنصحته زوجته بأن يدخل بجاريتها المصرية

---

(١) متى ٢٣ : ٣٢

(٢) لوقا ص ٥ : ٣١

(٣) أعمال ١٠ : ٣٧

هاجر ليصير له نسل منها، وفعل ابراهيم كرغبة زوجته واتخذ هاجر زوجة ثانية له انجبت إسماعيل عليه السلام الذي من نسله جاء محمد خاتم المرسلين ﷺ وبعد أن أنجبت هاجر غلامها المبارك، دبت الغيرة في قلب الزوجة الأولى سارة، ولم تطق أن ترى ضرتها وابن زوجها أمام عينها، ورغم أن الله فتح رحمها بعد ذلك فأنجبت اسحق أخاً لاسماعيل إلا أنها ألحت على إبراهيم أن يطرد سارة وابنها، ومنذ ذلك الحين يعتقد اليهود أنهم أبناء إسحق، أبناء الحرة سارة، أما العرب فهم أبناء اسماعيل، أبناء الجارية هجر، ومنذ ذلك حدثت التفرقة بين أبناء آدم وأبناء إبراهيم، بين كافة خلق الله، عبيد وأحرار، خدم وسادة، رغم أن الكل أبناء آدم وإبراهيم، الكل من تراب وإلى التراب يعودون.

ليس عجيباً بعد الآن أن نسمع عن الاستعمار والامبريالية، وعن التفرقة العنصرية، وعن استعبادة الشعوب واستنزاف ثرواتها، وعن معاملة الأمم العنصرية للشعوب الحرة معاملة السوائم والحشرات.

أرسل عيسى إلى بني إسرائيل، يقول تبارك وتعالى «وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم».

وأتى محمد إلى الناس أجمعين مبشراً ونذيراً لكافة الشعوب، وهادياً لجميع الأمم ورحمة للعاملين، الأبيض والأسود، والأصفر والأحمر، والعربي والأعجمي، والرومي والفارسي:

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي ملك السموات والأرض﴾ (الأعراف ١٥٨).

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (سبأ ٢٨).

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء١٠٧).

ومن الذي أرسل محمداً، إنه الله «رب العالمين»، رب المشرق والمغرب ﴿ فأينما تولوا فثمّ وجه الله ﴾ ليس يهوه «إله إسرائيل» أو «إله يعقوب» أو إله زيد أو عمرو، بل إله الكافة وخالق الجميع.

أتى الاسلام فسوى بين البشر، وقاوم الطبقات وحارب التسلط، وحرر الضمير الانساني من ربقة الطائفية ومن استعباد، الاستعلاء والسيطرة، يقول عز وجل ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (سورة الحجرات ١٣).

جميع الناس أسرة بشرية واحدة. التفاضل بين أفرادها بالتقوى والعمل الصالح، أكرمهم عند ربهم وأقربهم إليه أتقاهم وأحسنهم عملاً، لا تكريم ولا تفاضل من أجل جنس أو لون، أو طبقة أو أمة، ولكن لكل شرف الانتساب إلى الخالق العظيم وشرف الاستعداد لبلوغ الكمال والرفعة، فكلنا عبيده وكلنا صنع يديه، لا يعوقنا جنس، ولا تمنعنا طبقة ولا يحجبنا لون.

يرتفع مجلجلاً صوت الرسول الأمين في حجة الوداع «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على اعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد».(*)

---

* رواه أحمد في المسند ٤١١/٥ عن أبي نضرة، وقد كانت هذه الخطبة منه ﷺ في أيام التشريق.

صدقت يا محمد، فكلنا أبناء آدم، وآدم من التراب، كلنا من التراب وإليه نعود، فلماذا الاستعلاء والتعجرف؟ ولماذا الخيلاء والتنطع؟ ولماذا الزعم بالأفضلية والتميز؟ والادعاء بالمزايا والملكات؟ ألسنا جميعاً من الأرض نشأتنا وإليها عودتنا؟ خرجنا من الأرض وجبلنا من الطين وتناسلنا جميعاً من نطفة آدم وحواء، وخلقنا جميعاً إله واحد. إذاً فلا تفاضل بيننا، إلا بتقوى الخالق، وبالعمل الصالح لخير الدنيا والآخرة، يقول جل وعلا ﴿ **ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾ (الأنعام ١٣٢).

هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعو إلى العمل النافع ويحذر الأعراب من الاعتماد على الأصل أو المنبت، يقول عمر «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة».

التفاضل بين الناس بالإيمان والتقوى، وبالعلم والعمل، لا أحساب ولا أنساب، ولا غني وفقير، ولا جنسية ولا تعصب. يقول سبحانه ﴿**قل هل يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون**﴾؟ (الزمر ٩).

ويقول عز من قائل ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾ (المجادلة ١١).

والقرآن حديث الرحمن لم يكتبه محمد، ولم ينزل إلى محمد ولا إلى آل محمد، وإنما نزل للناس أجمعين، وما محمد إلا حامل الرسالة ومبلغها للناس.

نعم فالأمر كله لله، رب العالمين، رب العرب والعجم،

والبيض والسود والحمر والصفر، وما محمد إلا مبلغ ورسول.

لم يحاب القرآن العرب، ولم يجعلهم شعبه المختار، ولم يميزهم على سائر الشعوب، ولم يعتبرهم أبناء الله وأحباءه، بل ساوى بين الجميع وأعطى كل مخلوق على حسب عمله.

ليس هذا فحسب، بل إن القرآن لم يخف ما عليه العرب من مآخذ وما عليه بعضهم من سوء الخلال، يقول الحق تبارك وتعالى **﴿الاعراب أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، والله عليم حكيم﴾** (التوبة ٩٧).

وينبه القرآن الرسول والمؤمنين إلى ما عليه قومهم من نفاق وكفر ويحذرهم من الانحياز لهم أو الاطمئنان إليهم اعتماداً على أنهم قومهم وأهلوهم،ويؤكد سبحانه أن هؤلاء المنافقين الكفار سيلقون العذاب في النار، ولن يشفع لهم جنسهم أو قرابتهم للمؤمنين، يقول سبحانه **﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق، لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾** (التوبة١٠١).

حتى الأعراب الذين كانوا يساعدون المؤمنين وينفقون على الدعوة الاسلامية، فقد كان بعضهم غير مخلص في عمله، يبغي التقرب إلى المؤمنين للإيقاع بهم، وهنا يفضحهم القرآن ويتوعدهم بسوء المصير، يقول جل وعلا: **﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر، عليهم دائرة السوء، والله سميع عليم﴾** (التوبة ٩٨).

وعندما أسلم بعض الأعراب رغبة أو رهبة، طمعاً أو خوفاً

وادعوا الإيمان، لم يجاملهم القرآن بل صارحهم بأن الإيمان لما يعمر قلوبهم بعد، يقول سبحانه: **﴿قالت الأعراب آمنا: قل: لم تؤمنوا ولكن قولوا: أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾** (الحجرات ١٤).

الصدق أبلج، والحق صارم، والعدل بتار، لا يعرف قوماً، ولا جنساً ولا لوناً، حتى الأهل والأقربين والأحباب، لا تعصب ولا تحيز ولا مجاملة.

أخطأ العرب فعنفهم القرآن، وأظهر فسادهم ونفاقهم، وتوعدهم سوء العذاب، لم يجاملهم من أجل محمد ﷺ فليس لمحمد من الأمر شيء، ولكن الأمر كله لله.

والأقربون والأحباب كالأبعدين والأغراب، ينالون الجزاء الوفاق خير بخير، وشر بشر، هذا أبو لهب الزعيم العربي القرشي يهوي في الميزان إلى حضيض ليس له قرار، وإلى نار ذات لهيب وأوار، وهو عم الرسول ولكنه عدو الله: **﴿تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد﴾** (المسد١/٥).

أما العاملون الصابرون، والعلماء المتقون، من كل جنس ولون، فيأخذون مكانهم في أعلى السلم وفي أرقى الدرجات، هذا بلال العبد الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي وغيرهم، يجلسون جنباً إلى جنب بجوار أبي بكر الصديق وعمر ابن الخطاب وعلي بن أبي طالب قادة العرب وأعلام قريش.

بلال هذا ولاه الرسول أميراً على المدينة المنورة وفيها من

رعيته كبار الصحابة، وباذان(*) العبد الفارسي ولاه على اليمن، وعندما مات استخلف ابنه من بعده، وزيد بن حارثة المولى الرقيق جعله الرسول قائداً على جيش المسلمين وتحت إمرته كثير من الصحابة، تقول عائشة: ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في سرية إلا أمّره عليها. (**)

هؤلاء وغيرهم وصلوا إلى أعلى المراتب في الدنيا والآخرة بأعمالهم الصالحة وعلمهم النافع، لم يمنعهم الجنس أو اللون أو المنبت، بل طاولوا بأعناقهم كبار القريشيين وتساووا بالصحابة المقربين، وتميزوا على أقارب خاتم المرسلين.

وكم أعلى الرسول شرف الانسان وألقى على الناس دروساً في العزة والكرامة التي يتساوون فيها فيما بينهم كأسنان المشط.

كان أبو ذر الغفاري يحادث عبداً في حضرة الرسول، وحميت المناقشة بينهما فاحتد أبو ذر على العبد وخاطبه قائلاً: يا ابن السوداء، وهنا التفت المعلم العظيم إلى صاحبه غاضباً، وألقى في وجهه بتعبير غاية في الاستنكار «طف الصاع، طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالعمل الصالح»، وهنا أدرك أبو ذر من هذا التأنيب اللاذع مدى الخطأ الذي ارتكبه في حق أخيه الإنسان، فهوى في لحظة من استعلائه، وتذكر منشأهما ومنبتهما وقام ووضع خده على التراب، وقال للعبد: قم فطأ بقدمك على خدي(***)

* لعله أراد سلمان الفارسي

** قال الحافظ ابن كثير: رواه الامام أحمد وابن أبي شيبة (السيرة النبوية ٣/٤٨١) .

*** أخرجه البخاري ١/٢١ كتاب الإيمان ومسلم رقم (١٦٦١) بألفاظ أخرى ليس فيها قوله : « قم فطأ بقدمك على خدي » .

حدث هذا وغيره منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، ولكننا نرى الآن في أوروبا واميركا يحرمون المسيحي الملون من التعبد في كنيسة المسيحي الأبيض، لهذا انتشر الاسلام بين الافريقيين على نطاق واسع، لأنه أشعرهم بالعزة والكرامة، ومحا الفوارق والعصبيات.

دعوة إنسانية عالمية، قضت على العنصرية والطائفية، وأزالت الأحقاد والاضطرابات، ومنعت أكبر أسباب الفتن والحروب، تلك هي نزعة الاستعلاء والتسلط التي ولدت الأثرة والأنانية وحب التزعم والسيطرة، دون مراعاة لحقوق الشعوب الأخرى أو تقدير لحرمات البلاد الأخرى، مما أذكى حروب الاستعمار والاستغلال، ثم أتى الإسلام فوضع الترياق لسم الأحقاد، الدولية والمنازعات العنصرية، ودعا إلى التآلف والوحدة، وإلى التآخي والمساواة يقول سبحانه : **﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾** ويقول رسوله الكريم «ليس منا من دعا إلى عصبية(*)، فلا عصبية لغير الحق، ولا ولاء لغير الله، وكلنا أخوة متحابون. . وبينما يحرم الكتاب المقدس أن يحادث اليهودي غير اليهود أو يختلط بهم أو يصاهرهم، أو يؤاكلهم ويشاربهم، يبيح القرآن للمسلم أن يؤاكل غير المسلمين ويشاربهم، بل يتزوج المسلم الكتابية من جميع الأجناس ويجعل أهلها خئولة لأولاده المسلمين.

يأتي محمد ﷺ ليقيم الحد على ابنة أحد وجهاء العرب لارتكابها جريمة سرقة، فيجيء أسامة بن زيد يتشفع لها عنده،

* أخرجه أبو داود (٥١٢١) ورجاله ثقات غير ابن لبيبة فإن ابن حبان لم يوثقه. قاله البغوي في شرح السنة ١٣ / ١٢٢.

فينهر الرسول صاحبه قائلاً: أتشفع في حد من حدود الله، إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الفقير أقاموا عليه الحد، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها(*).

عدل ومساواة أباح ليهودي أن يخاصم علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته، وأن يوقفه بجواره في مجلس القضاء جنباً إلى جنب إلى أن يقضي الحق بينهما.

وعلم الأجناس ينكر بطريقة قاطعة وجود أي دليل علمي يؤيد تميز أحد الأجناس البشرية على الأخرى، بل إن الفروق البدنية بين الأجناس المختلفة لا ترجع إلا إلى البيئة والظروف والمناخ والتربية، ولا تأثير لها البتة على الصفات العقلية أو القدرات النفسية للشخص، والتاريخ يشهد أن رسالة الحضارة والمدنية لم تثبت في مكان واحد، بل تداولتها منذ القدم مختلف الشعوب والأمم والأجناس، تبعاً لحظها من العلماء والعاملين من أبنائها خلال فترة معينة من الزمن، من هذا يتضح بجلاء أن إدعاء بني إسرائيل بتميزهم عن سائر الشعوب، واختصاصهم وحدهم بهبات وملكات حرم منها غيرهم(**)، وذلك لرغبتهم في استعباد الناس والشعوب والتسلط على الأمم، ما هي إلا دعوى زائفة كذبها الاسلام، وأثبت بهتانها العلم.

---

* أخرجه البخاري ٤ / ١٤٣ كتاب الأنبياء، باب مناقب أصحاب النبي ﷺ ومسلم (١٦٨٨) والبغوي في شرح السنة ١٠ / ٣٢٩.

** وقدر رد الله عليهم هذا الزعم بقوله: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق﴾ (المائدة ١٨).

هـذا هو الإسـلام، شـريعة العدل والمسـاواة، والحريـة والكرامة، والتعاطف والرحمة، والتآلف والمودة، والعزة والوحدة، الناس فيها أمة واحدة، خلقهم ربهم الواحد من نفس واحدة، يقول سبحانه **﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾** (النساء١).

صدقت يارب العالمين، صدقت يا أرحم الراحمين، فقد خلقتنا جميعاً من نفس واحدة لأب واحد، ومن أصل واحد، لا فضل لأحد منا على أخيه، إلا بتقواك، وبعبادته لك، وبعمله لك، وبقربه منك، كلنا عبيدك وصنع يديك، وكلنا يوم الدينونة نلقاك، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وما ربك بغافل عما يعملون.

الفصل الخامس

الكفارة والصلب

خلق الله آدم وحواء ، ووضعهما في جنة عدن ، وأحل لهما أطيابها ، وما نهاهما عن شيء فيها إلا شجرة واحدة في وسط الجنة ، أوصاهما ألا يقرباها .

تقول التوراة : « وأوصى الرب الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً ، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » [1] .

وفي القرآن يقول سبحانه : ﴿ **ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ (الأعراف ١٩) .

---

(١) تكوين ٢ : ١٥ ـ ١٧ .

وفيه أيضاً عن غواية الشيطان لآدم وحواء﴿ فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[1].

عصى آدم وحواء ربهما بأكلهما من الشجرة التي نهاهما الله عنها ، فكان لا بد أن يتركا الجنة ويعودا إلى الأرض التي جبلا منها ، ليختبرهما الله فيها ، فلا يعود إلى الجنة إلا من حسن عمله .

يرى كتاب المسيحية أن هذه الخطيئة الأولى لم تقتصر على آدم وحواء ، بل امتدت بحكم التناسل من ذات الدم الموبوء بالخطيئة إلى البشرية كلها على مر الأجيال ، فجلبت الدمار على البشر أجمعين ، وأن كل ما نحس به نحن البشر من شك أو نزوع إلى الفتنة وما إليها من الدس والوقيعة والرياء والخديعة ، أصول الجرائم وأسسها كلها منحدرة من مصدرٍ واحد هو الأبوان الأولان[*].

---

(١) الأعراف ٢٢ ـ ٢٣ .

* وهذا باطل فإن الله أخبر أنه سيجعل آدم خليفة في الأرض قبل ارتكابه المعصية . أما ما يذهب إليه النصارى من أن الله سخط على الخلق بسبب خطيئة أبيهم آدم فهذا أمحل المحال لوجوهٍ عديدة منها :

١ ـ أن الله أرسل رسلاً كثيرين في الفترة الممتدة بين نزول آدم ومجيء عيسى عليهما السلام . ولو كان غاضباً على البشر لما أرسل إليهم رسلاً يعلمونهم من الأعمال ما يرضيه ويوجب محبته لهم .

٢ ـ أن الله أمر نوحاً عليه السلام أن يجمع المؤمنين في السفينة فلما جمعهم ولم =

يقول بولس : « من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم ، وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع »[1] .

ويشرح لنا القس لبيب ميخائيل كيفية ذلك فيقول « لقد كان آدم نائباً وممثلاً لجميع الجنس البشري الذي كان في صلبه يوم تعدى وصية الله .. فبعد طرده من الجنة ولد نسلاً ساقطاً نظيره * ، في حالة الفساد الروحي والأدبي ، وتحت حكم الموت والدينونة التي استحقها بعصيانه وتمرده على الله(**)، وقد ورث هذا النسل عن أبويه الأولين حياة العداوة لله ، والتمرد على شرائعه ووصاياه »[2] .

= يبق على وجه الأرض إلا كافر جاحد أغرق الله الكفرة والمشركين ونجا المؤمنين ممن ركب السفينة مع نوح .

٣ ـ أنه من مقتضى عدل الله أنه لا يؤاخذ زيداً بما فعله عمرو ، والقول بمقولة النصارى مشتمل على نسبة الظلم إلى الله فما علاقة الواحد منا بما فعله أبونا آدم ؟

٤ ـ والقول بتعذيب واحد ـ وهو المسيح ـ لتحصل مغفرة الله ورضاه على الناس بكل ما اقترفوه من الذنوب فيه نسبة الظلم إلى الله أيضاً . إذ ما ذنب هذا الواحد حتى يتحمل أخطاء البشر بجملتهم ، فيقترفوا من الذنوب والآثام ما شاؤوا وبلا شعور بالندم لأن أخطاءهم مهما كثرت فإن هناك من تحملها عنهم وتعذب بسببها نيابة عنهم !!

(١) رومية ٥ : ١٢

* كان آدم عليه السلام نبياً لله ، ولم يكن ساقطاً كما يزعم هذا المفتري .

** والعصيان ليس كالتمرد ، فالتمرد عبارة عن التكبر والتعاظم والغرور . أما المعصية فلا يشملها ذلك . وفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس فقد عصى إبليس ربه عصيان جاحد مستكبر ، وليست معصية آدم من هذا القبيل فإنه رجع عن ذنبه واستغفر وتاب فتاب الله عليه .

(٢) لبيب ميخائيل ـ قضية الصليب ص ٨١

ولكن هل أصر آدم وحواء على فعلتهما . ألم يندما عليها ويستغفرا ربهما ؟ وهل تاب الله عليهما ، فجنبهما وأبناءهما مغبة الإنحدار في مهاوي الضلالة ؟

ينفي كتاب المسيحية ذلك نفياً قاطعاً ، ويرون أن الله لم يغفر لآدم وحواء خطيئتهما . بل تركهما وأبناءهما من بعدهما تحت حكم الدينونة * .

ولكن إلى متى يظل آدم وأبناؤه مدنسين بهذه الخطيئة ؟

العدل والرحمة :

يقول كتاب المسيحية إن الله عادل ورحيم ، فبمقتضى عدله كان لا بد أن ينفذ حكم الموت على آدم وحواء « لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » ،ولكن بمقتضى رحمته كان يجب أن يعفو عنهما بلا قيدٍ ولا شرط ، صفتان في الله ، وقانونان له يرتبط بهما سبحانه ارتباطاً حتمياً لا يستطيع منه الفكاك ، يقول الايغومانس إبراهيم لوقا « إن الله وإن كان غير خاضع لناموس خارج عنه إلا أنه مرتبط بناموس كماله الأدبي ، فهو وإن كان على كل شيء قدير إلا أن كماله الأدبي لا يسمح له بأن يأتي ما يناقض طبيعته الخيرة والمقدسة**، فهو تعالى وإن لم يكن مرتبطاً بقانون

---

* ولا بد لهم من أن ينفوا توبة آدم وحواء . إذ لو ثبتت التوبة لبطلت عقيدة « المسيح المخلص » التي هي قطب الرحى لعقيدة النصارى .
ولذلك فقد ضحوا بآدم قليلاً فاتهموه بالسقوط والتمرد والدنس تبريراً لفكرة الكفارة والصلب .

** إذا كان النصارى يصورون للناس صعوبة المغفرة لآدم على معصيته ـ علماً بأنها صغيرة إذا ما قورنت بالفواحش والكبائر التي يأتيها بنوه من بعده ـ فيكون من باب أولى لهؤلاء =

خارجي ، فإنه مرتبط بقانون طبيعته الأدبية الكاملة ، وهذا يجعله لا يأتي ما يخل بأي صفة من صفاته أو ما يمسها»[1].

ولكن هذان القانونان في الله ، وهاتان الصفتان فيه متعارضتان ومتغايرتان ، بحيث لا يمكن التوفيق بينهما ، العدل يطالب بالموت جزاء العصيان ، والرحمة تطلب العفو والمغفرة ، والله حائر بين صفتيه المتعارضتين ، لا يعرف كيف يوفق بينهما ، أو كيف يغلب إحدى الصفتين على الأخرى ، إذا أراد أن يميت بالعدل منعته الرحمة ، وإذا رغب أن يعفو بالرحمة عاقة العدل .(*)

الكفارة :

يقول بولس : « لا توجد مغفرة بدون سفك دم » **

ولكن من هو الشخص الذي يستحق أن ينوب عن آدم ؟

= أن يزداد في تصوراتهم صعوبة غفران الله لكبائر ذريته من قتل وزنا وسرقة ونحوه ؟؟

وفي الحقيقة أن الله يغفر لمن يشاء ولا حدود لرحمته . وفي القرآن نداء إلى أولئك الذين تمادوا في الذنوب وأسرفوا في المعاصي ثم خافوا على أنفسهم أنهم إن استغفروا ألا يغفر الله ذلك . قال تعالى مخاطباً هؤلاء : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ (الزمر ٥٣) .

فإن كانت المغفرة ممكنة بالنسبة لكبائر الذنوب فكيف لا يمكن مغفرة ما هو دون ذلك من الذنوب والمعاصي كمعصية آدم !!

(١) إبراهيم لوقا ـ المسيحية في الإسلام ص ١٦٠

* تأمل كيف يصف هؤلاء رب العزة بالجهل والحيرة والتناقض وسبب ذلك عائد إلى جهلهم بما يليق به مما يجب تنزيهه عنه ، والواجب التأدب مع الله سبحانه وتعالى

(**) ومثل هذا الكلام يجعلونه ممهداً ومقدماً لمبدأ « يسوع المخلّص » ولا يدرون أنهم يضيقون بذلك رحمة الله الواسعة ! .

وما هي الدماء التي يكفي سفكها لتخليص آدم وزوجته من الخطيئة ؟ .

يقول الكتاب إن خطيئة آدم لا تشترى إلا بدم زكي نفيس ، وهذا الدم لا يكون دم إنسان من البشر ذلك أن البشر ملوثون ودماءهم نجسة ، كذلك ليس دم حيوان من الحيوانات التي تعود الوثنيون واليهود ذبحها كفارة عن ذنوبهم . ذلك أن الحيوان لم يشترك في خطيئة آدم [1] ، كذلك ليس دم ملاك لأن الملائكة ليس لهم دم وبالتالي لا يصلحون للفداء ، وإذن فلا بد أن يكون الدم دماً إلهياً طاهراً ، ولكن في نفس الوقت يمثل البشرية فهو دم طاهر ـ ولا طاهر إلا الله ـ ويمثل الإنسان .

ولكن هل للإله دم ؟ وكيف يكون الدم إلهياً ويمثل البشرية في نفس الوقت ؟ المشكلة تحل بنظرية التجسد ، يرسل الله ابنه الوحيد ليحل في جسد العذراء مريم ، ويظل في بطنها فأحشائها تسعة أشهر ، ثم يولد بالجسد إنساناً ذا لحم ودم ولكنه الله نفسه .

يقول بولس : « لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة ، ومولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين هم تحت الناموس * لننال التبني » (غلاطية ٤ : ٤) .

---

(١) يلاحظ أن التوراة تقرر أن الحية وهي حيوان هي التي حرضت.حواء على الأكل من الشجرة المحرمة .

* وقد بلغت ببولس الجرأة ـ بعدما كثر كلامه وخوضه عن المسيح المخلّص والمضحي بنفسه ـ بلغت به الجرأة أن وصف المسيح عليه السلام بأنه صار ملعوناً حين عُلّق=

هذه النظرية يقوم عليها الدين المسيحي كله ، يقول القس بولس إلياس « إن موت المسيح وبالتالي ـ سر الفداء ـ يمثل نقطة الدائرة من الدين المسيحي ، لقد تم مفعول الوساطة بموت المسيح وسفكه دمه ، الذي به كفر عن خطايانا وأرضى الله أباه » (١) .

الصلب :

يحدثنا مرقس عن كيفية القبض على عيسى تمهيداً لصلبه « وكان الفصح وأيام الفطير بعد يومين ، وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يمسكونه بمكر ويقتلونه ، ولكنهم قالوا ليس في العيد لئلا يكون شغب في الشعب ، وجاؤوا (عيسى والتلاميذ) إلى ضيعة إسمها جثيماني فقال لتلاميذه : إجلسوا هنا حتى أصلي * ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا وابتدأ يدهش

= على خشبة وصلب عليها . يقول بولس : « يسوع الذي صار لعنة ، من أجلنا لأنه مكتوب : ملعون كل من علّق على خشبة » (غلاطية الثاني ٣ : ١٣) .

وزاد القس جواد بن ساباط على ذلك قائلاً : « كما أن المسيح مات لأجلنا ودفن ، فلا بد أن نعتقد أنه قد دخل جهنم » (عن كتابه « الصلاة ») .

وزاد الراهب فيليبس كودانولس في كتابه « خيالات فيليبس » :

« يسوع الذي تألم لخلاصنا وهبط إلى الجحيم ثم في اليوم الثالث قام من بين الأموات». (أنظر كتاب إظهار الحق ٣٤٨ للشيخ رحمة الله الهندي ط. القاهرة) .

فانظر كيف يتخرص هؤلاء ويرمون المسيح بأقذع النعوت حتى جعلوه ملعوناً ومطروحاً في جهنم ، كل ذلك ليتحمل عن العباد خطاياهم !!

(١) بولس الياس ـ يسوع المسيح ص ٩٤

* إذا كان المسيح جزءاً من إله فهل كان يصلي لجزئه الآخر ؟!

* ولماذا تدان البشرية بأجمعها بذنب أبيهم ؟ أليس مكتوباً في كتب القوم أن الرجل لا يؤخذ بذنب أخيه وأن الأب لا يحمل خطيئة ابنه ؟ (حزقيال ١٨ : ٢٠) وهل يُعقل أن يغضب الله على البشر جملة واحدة بسبب ذنبٍ لم يرتكبوه ، ثم يرضى عنهم =

ويكتئب فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت ، امكثوا هنا واسهروا ، ثم تقدم قليلاً وخر على الأرض وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن ، وقال يا أبا الآب كل شيء مستطاع لك فأجز عني هذه الكأس »[1] .

وقبل أن نستطرد في ذكر تفاصيل الصلب كما روتها الأناجيل ، نقف قليلاً عند بعض الألفاظ والعبارات التي وردت ، لنتبين مدى تلاؤمها مع نظرية الكفارة والصلب ، إن كتاب المسيحية يقررون أن أول شروط الفادي أنه جاء بنفسه وإرادته إلى العالم ونزل من عليائه وتجسد ليصلب ، لم يأت إلى العالم ولم يتجسد إلا ليصلب ويكفر بنفسه ودمه خطيئة آدم . وإذا كان هذا صحيحاً وكان عيسى قد أتى بإرادته لِيُصلب ، فما الذي يدعوه هنا إلى الحزن والإكتئاب ؟ وما الذي يدعوه إلى تغيير رأيه وطلب العدول عن صلبه ؟ بل ما الذي جعله يصلي لله ويتوسل إليه أن يجيز عنه هذه الكأس وأن يخلصه من الصلب ؟ وأي صلاة تلك

= جملةً واحدة بعد أن يعذب عنهم واحداً جاعلاً إياه كبش الفداء لهذا الرضى ؟!
وهذه النظرية تثبط الطائع عن الطاعة ، وتحث العاصي على ارتكاب المعصية فالنظرية تنادي الطائع قائلة : إذا كانت المغفرة تشمل الجميع من قاتلٍ وسارق وزانٍ بعد أن ضحى المسيح بنفسه لتحصل المغفرة للبشر فلم لا تزني وترتكب الفواحش ما دام لا حساب عليها ، وما الداعيْ إلى قضاء العمر وإفنائه في الطاعة مع أن نتيجتك ونتيجة العاصي في الجنة سواء .

ثم تنادي العاصي قائلة : إفعل ما بدا لك ، فقد خلصك المسيح وخلّص الجميع من خطاياهم وتعذب نيابة عنك وعنهم . وما عليك إلا أنْ تؤمن بأنه هو المخلّص والمفتدي بنفسه عذاب الناس !

(١) مرقس ص ٤

التي كان يصليها عيسى لله ؟ إنها صلاة الخضوع والخشوع والبكاء ، صلاة الخوف والخشية والحزن .

هنا نرى عيسى يعيد الصلاة والتضرع لله أن يجيز عنه الكأس التي ما أتى إلى العالم إلا ليشربها ويرجو تلاميذه أن يصلوا معه ، ويتوسلوا لله ليبعد عنه كأس الموت ، ويتكرر المشهد والصلاة والتضرع ثلاث مرات ، وتصور الأناجيل أن الله لم يستجب لتوسلات عيسى وصلاته ، فيئس عيسى وكف عن الصلاة ، وسمح لتلاميذه بالراحة والنوم .

ويمضي مرقس في روايته فيقول « وللوقت فيما هو يتكلم (عيسى) أقبل يهوذا واحد من الإثني عشر ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ وكان مسلّمه الخائن يهوذا قد أعطاهم علامة قائلاً : الذي أقبّله هو هو ، أمسكوه وأمضوا به بحرص ، فجاء الوقت وتقدم إليه قائلاً : يا سيدي وقبله ، فألقوا أيديهم عليه وأمسكوه»[1].

ويوضح لنا لوقا مدى الكراهية التي أصبح اليهود يكنونها لعيسى ، إلى درجة أن الوالي بيلاطس عندما خيرهم بين العفو عن عيسى بمناسبة عيد الفصح أو العفو عن باراباس القاتل ، صرخ الجموع في الوالي « خذ هذا وأطلق لنا باراباس ، وذاك قد طرح في السجن لأجل فتنة حدثت في المدينة وقتل ، فناداهم أيضاً بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع ، فصرخوا قائلين : إصلبه . فقال لهم ثالثة : فأي شيء عمل هذا ، إني لم أجد فيه

---

(١) مرقس ١٤ : ٤٣ ـ ٤٧

علة للموت ، فأنا أؤدبه وأطلقه ، فكانوا يلجون بأصوات عظيمة طالبين أن يصلب ، فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة ، فحكم بيلاطس أن تكون طلبتهم ، فأطلق لهم الذي طرح في السجن لأجل فتنة وقتل الذي طلبوه ، وأسلم يسوع لمشيئتهم »[1] .

وهنا تأخذنا الدهشة ، أن جموع الشعب تصرخ طالبة الموت لعيسى ، وإطلاق سراح مجرم قاتل ، فما الذي حدا بالجموع إلى هذا الحقد الشديد على عيسى ، والمطالبة بقتله وسفك دمه ، وأين الآلاف الذين شفاهم وصنع بينهم المعجزات ؟ وأين الآلاف الذين استقبلوا عيسى عند دخوله أورشليم ؟ إستقبلوه بالأغصان والرياحين ، وخلعوا ثيابهم عن أجسادهم وفرشوها في طريقه لتطأها أقدام حماره . وهتفوا له ملكاً عليهم ومحرراً لإسرائيل ، أين هؤلاء جميعاً ؟ وكيف انقلب هذا الحب الجارف إلى مقتٍ شديد ، ورغبة عارمة في الإنتقام والتنكيل والتعذيب ؟ هل هي صدمة اليهود في عيسى الملك المخلص ؟ الذي لم يستطع تحرير إسرائيل أو الجلوس على عرش داود ، أم ما هي الحقيقة ؟

ويستطرد متى في شرح عقيدة الصلب فيقول : « فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة ، فعروه وألبسوه رداء قرمزياً ، وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه ، وكانوا يجيئون قدامه ويستهزئون به

---

(١) لوقا ٢٣ : ١٨ ـ ٢٥

قائلين : السلام لك يا ملك اليهود ، وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه * وبعد أن استهزؤا بـه نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب » [1] .

وهنا يثور التساؤل. هل كان من اللازم أن يموت عيسى بهذه الطريقة؟. شيء عادي أن يموت الإنسان شهيداً، وشيء طبيعي أن يضحي الإنسان بنفسه من أجل هدف أو غاية، وهؤلاء وهؤلاء يموتون دائماً ميتة كريمة ، بل حتى المذنبين فإن طريقة إعدامهم تختلف تبعاً لقدر كل منهم وقيمته في المجتمع ، وتبعاً للجرم الذي أتاه وما إذا كان هذا الجرم مخلاً بالشرف والكرامة أم لا ، فالمجرم الأثيم قد يعدم شنقاً بحبل أو صلباً على خشبة أو قد يلقى بـه طعامـاً للوحوش ، أمـا المذنب الشـريف فيعدم رميـاً بالرصاص أو يقتل في مبـارزة وهكذا . . نعم هـذه ميتة وتلك ميتة ، ولكن شتان بين الميتتين .

قد يكون السبب ما نراه من تصويرهم عيسى كملك كاذب مزيف يضعون على رأسه إكليل الشوك بدلاً من إكليل الذهب المرصع بالماس ، ويجعلون في يده قصبة من العشب الجاف

---

* كيف يليق بالنصارى عبادة إله كان يحاول الهرب من خصومه حتى إذا قبضوا عليه طفقوا يستهزئون به ويبصقون عليه ويضعون على رأسه إكليلاً من الشوك تحقيراً له ، ويطوفون حوله قائلين : « إن كنت ابن الله خلّص نفسك » وقولهم : « خلّص غيره وما قدر أن يخلص نفسه » (متى ٢٧ : ٢٩) .
يا له من إله ضعيف تصفه الأناجيل الأربعة بأنـه لُطم وضـرب على وجهـه من قبل خـادم حقير فقال له المسيح : « لماذا تضربني ؟ » أليس هذا مضحكاً ؟!!
(أنظر متى ٢٧ : ٣٠ ، ومرقس ١٤ : ٦٥ ولوقا ٢٢ : ٦٤ ويوحنا ١٨ : ٢٣) .

(١) متى ٢٧ : ٢٧ ـ ٣١

بدلاً من قصبة الملك ، فقد ادعى أنه المسيح المخلص ملك اليهود ومحررهم وكذب ادعاؤه وافتضح زيفه(*).

ويمضي متى في ذكر رواية الصلب فيقول « وفيما هم خارجون وجدوا إنساناً قيروانياً إسمه سمعان فسخروه ليحمل صليبه ، ولما أتوا إلى موضع يقال له جلجثة وهو المسمى موضع الجمجمة ، أعطوه خلاً ممزوجاً بمرارة ليشرب ، ولما ذاق لم يرد أن يشرب ، ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة هكذا : هذا يسوع ملك اليهود ، حينئذ صلب معه لصان واحد عن اليمين وواحد عن اليسار وكان المجتازون يجدفون عليه ، وكذلك رؤساء الكهنة أيضاً وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قائلين : خلص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها ، إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به** ، وبذلك أيضاً كان اللصان اللذان صلبا معه يعيرانه .. ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً : إيلي إيلي لماذا شبقتني أي إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا : إنه ينادي إيليا ، وللوقت ركض واحد منهم وأخذ إسفنجة وملأها خلا وجعله على قصبة وسقاه ، وأما الباقون فقالوا : اتركه لنرى هل يأتي إيليا ليخلصه فصرخ يسوع بصوتٍ عظيم وأسلم الروح »[1] .

---

* حاشاه مما يقولون عنه

** وما الذي كان يمنعه أن ينزل ويثبت لهم أنه ملك إسرائيل إلى الأبد ـ على حد قول إنجيل متى « ولا يكون لملكه نهاية » عند تبشير أمه به ـ أليس الأجدر له أن يثبت قدرته وألوهيته بدل أن يتركهم وقد أثبتوا للناس ولأنفسهم ضعفه وخوره وعجزه !!.

(١) متى ٢٧ : ٣٣ ـ ٥٠

ما الذي جعله يصرخ هذه الصرخات اليائسة على الصليب؟ كيف يكون هذا وما أتى إلى العالم إلا من أجل هذه اللحظة؟ لحظة الصلب والموت من أجل الآخرين، وهي لحظة كانت جديرة بأن تجعله يفرح لا يحزن .

تناقض الرواة :

فرض جدلي نسلم فيه بصحة الصلب ، ومع ذلك فإننا نلاحظ بين بعض الأناجيل تناقض كبير في سرد أحداث الرواية وذكر الحوادث بعضهم يقتصد والبعض يبالغ، بعضهم يأتي بحدث أو حديث لا يذكره غيره أو يذكره على نحو مغاير ، حتى عذاب عيسى اختلفوا فيه ، بعضهم تمادى في ذكر آلامه وأحزانه ، وبعضهم اقتصد في التعذيب وقتر في التأنيب .

والتناقضات كثيرة ، ولكننا هنا نقتصر على إيراد بعض أوجهها تاركين التفاصيل لمن يرغب في مطالعة الأناجيل .

في محاكمة المصلوب الذي يدعون أنه عيسى نرى متى يتحدث في إنجيله عن كيفية مثول عيسى أمام الوالي بيلاطس فيقول « فوقف يسوع أمام الوالي فسأله الوالي قائلاً : أأنت ملك اليهود؟ فقال له يسوع : أنت تقول . وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء فقال له بيلاطس : أما تسمع كم يشهدون عليك ، فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جداً »[1].

---

(١) متى ٢٧ : ١١ ـ ١٤

ويعيد ذكر هذا الموقف مرقس في الاصحاح الخامس عشر من إنجيله بكلمات مشابهة أيضاً .

أما يوحنا فيذكر هذه الواقعة بطريقة مخالفة تماماً للإنجيلين السابقين وبحديث مغاير تماماً لما ورد فيهما ، يقول يوحنا « ثم دخل بيلاطس أيضاً إلى دار الولاية ودعا يسوع وقال له : أنت ملك اليهود ؟ أجابه يسوع : أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني : أجابه بيلاطس ألعلي أنا يهودي ، أمتك ورؤساء الكنيسة أسلموك إلي . ماذا فعلت ؟ أجاب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم ، لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكيلا أسلم إلى اليهود ، ولكن الآن مملكتي ليست من هنا * . فقال له بيلاطس : أفأنت إذاً ملك ؟ أجاب يسوع : أنت تقول إني ملك ، لهذا قد ولدت : ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق كل من هو من الحق يسمع صوتي ، قال له بيلاطس : ما هو الحق »[1] .

في هذا الواقعة ، واقعة محاكمة عيسى ، نجد إنجيلي متى ومرقس يؤكدان أن كل ما قاله عيسى لبيلاطس « أنت تقول » ويجزمان بأن بيلاطس حاول بعد ذلك أن يتحدث مع عيسى أو يتناقش معه أو يجعله يدافع عن نفسه فلم يجبه عيسى ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جداً . هذا ما يقوله متى

---

* أليس هذا القول يتناقض وبشرى جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام أنها ستلد ابناً يعطي كرسي أبيه . مع العلم أن كرسي داود ومملكته كانت على الأرض وفي هذا العالم لا في عوالم أخرى !.

(١) يوحنا ١٨ : ٣٣ - ٣٨

ومرقس ، أما يوحنا التلميذ الحبيب لعيسى فقد أورد حديثاً طويلاً يرد به عيسى على الوالي ويناقشه ، ويتحدث فيه عن مملكته السماوية ، وعن الحق الذي أتى ليشهد له .

وواقعة أخرى هي شخصية حامل الصليب الذي علق عليه عيسى كما يقررون ، يقرر متى ولوقا أن عيسى لم يحمل الصليب بنفسه بل حمله عنه فلاح يدعى سمعان أحضره الجنود الذين كانوا يحرسون عيسى ، يقولان بأن الجنود « أمسكوا سمعان رجلاً قيروانياً كان آتياً من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله » [1] . أما يوحنا فيقرر أن عيسى هو الذي حمل صليبه بنفسه حتى موضع الصلب ، يقول يوحنا « فأخذوا يسوع ومضوا به فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع الذي يقال له الجمجمة حيث صلبوه » [2] .

الرواية الأولى (متى ولوقا) رغب صاحباها في توقير عيسى وإكرامه فجعلا جنود الرومان يسخرون فلاحاً يحمل عن عيسى صليبه ويسير خلفه . أما الرواية الثانية (يوحنا) فيبدو أن صاحبها قد أراد المبالغة في إظهار عذاب عيسى فحمّله صليبه إلى موضع صلبه .

وفي تصوير موقف عيسى على الصليب ، بينما نرى متى ومرقس يصورانه فزعاً هلعاً خائفاً مذعوراً، يصرخ إلى الله في يأس وضجر . « إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ » ثم يصرخ بصوت عظيم ويسلم الروح ، نرى لوقا يصوره راضياً قانعاً ، سمحاً

---

(١) متى ٢٧ ، لوقا ٢٣

(٢) يوحنا ١٩ : ١

مسالماً لا يصرخ ولا يفزع .·. ولا يتأوه ولا يتألم ، بل ينظر للأمر كله بحكمة وتعقل ، وبطيب خاطر وبساطة سريرة ، يطلب إلى الله أن يغفر لجلاديه وأن يرحمهم « يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » ، أما يوحنا فلا يذكر شيئاً عن هذا أو ذاك ، لا صراخ ولا رضى ، وإنما يصور عيسى بكامل الإتزان وجمود القلب ، لا تتحرك منه خلجة ولا تهتز له جارحة . بل يترقب كل خطوة من خطواته نحو الموت ، وكل مرحلة من مراحل تعذيبه كأنها قدر مكتوب ووعد محسوب ، وكأن على صالبيه إتمام هذا الوعد وتحقيقه بنفس الدقة والترتيب الذي قدر به وحسب ، بحيث أنه عندما انتهت كافة الخطوات والمراحل ، وبدأ عيسى يجود بأنفاسه ويسلم روحه لبارئه ، لم ينطق سوى كلمة واحدة « قد أكمل » وكأنها شهادة لجلاديه بأنهم أتموا تحقيق المهمة الإلهية التي وكلوا بتنفيذها وأدوها على خير وجه ، ليس هذا فحسب بل إن يوحنا يذكر في إنجيله أن عيسى عندما أخبر تلاميذه بموته طلب منهم أن يفرحوا لهذا الخبر ولا يحزنوا « لا تضطرب قلوبكم ، سمعتم أني قلت لكم أنا أذهب ثم آتي إليكم ، لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون »[1] .

وواقعة خامسة يذكرها متى وحده ، يقول متى إنه بعد أن أسلم عيسى الروح « وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت ، والقبور تفتحت ، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من

---

(١) يوحنا ١٤ : ١

القبور بعد قيامته . ودخلوا المدينة المقدسة (أورشليم) ، وظهروا لكثيرين »[1] .

هذه الحادثة التي ابتدعها خيال متى لم يذكرها أحد من المؤرخين(*) ولم يسمع بها أحد، ولو صحت هذه الحادثة العظيمة فعلاً لما بقي صاغ لإنكار ، ولآمن كل الشعب اليهودي بعيسى ومنهم جلادوه وصالبوه .

أضواء على الفكرة :

إذا صرفنا النظر مؤقتاً عما شاب رواية أحداث الصلب من متناقضات ، وعن مدى نصيب هذه الأحداث في جملتها وتفصيلاتها من الصحة ، وعدنا إلى فكرة الكفارة نفسها . ونظرية إفتداء عيسى بدمه خطيئة آدم التي علق وزرها بالناس حتى مجيئه ، فإن لنا على النظرية ذاتها بعض الملاحظات .

أنبياء آثمون :

مقتضى فكرة الكفارة والإثم الذي ظل عالقاً بالبشر منذ هبوط آدم حتى مجيء عيسى أن الله سبحانه ظل يضمر الغضب والسوء للجنس البشري آلاف السنين حتى جاء عيسى ليمحو بدمه الإثم .

ولكن من المعروف أن الله قد اختار من هؤلاء البشر - الآثمين قبل مجيء عيسى - رسلاً لهم وأنبياء . إختارهم واصطفاهم ليبلغوا

---

(١) متى ٢٧ : ٥١ - ٥٣

(*) يقول العالم الغربي J.C.Fenton عن هذه الحادثة : « لقد كان قصد متى من هذه الأحداث الخرافية أن يبين أن موت يسوع كان عملاً من صنع الله » .
(SAINT MATHIEW, 444, Penguin Books, 1968)

رسالاته للناس ولهداية البشرية ، اختارهم وأيدهم بمعجزاته وآياته وكتبه ورسالاته ، إختارهم لبرهم وصلاحهم ، ووعدهم جنات الفردوس والنعيم .

إختار نوحاً رسولاً باراً ، واختار إبراهيم له خليلاً ، واختار لوطاً نبياً ، واختار موسى كليماً ، واختار إسماعيل وإسحق ويعقوب الملقب بإسرائيل ، واختار داود المبارك جد عيسى الذي طالما تفاخر عيسى بأنه من سلالته . واختار إبنه سليمان ، واختار غيرهم كثيرين ، كل هؤلاء اختارهم سبحانه رسلاً مكرمين وأنبياء مطهرين قبل مجيء عيسى وتطهير البشر بدمه . فهل هؤلاء أيضاً منجسون بالدم الفاسد وبالخطيئة والإثم الذى ورثوه عن أبيهم الأول آدم ؟ .

ثمرة عملك :

هذا الذي يقوله الكتاب يناقض كل حق وصدق ، وكل عقل ومنطق ، بل يناقض ما ورد في كتابهم المقدس وفي كافة الكتب السماوية والقوانين الوضعية من مسئولية كل إنسان عن فعله ، وأن كل فرد يحاسب عما أتت يداه ، وأنه لا يؤخذ الولد بخطيئة الوالد ، ولا يعاقب أحد على ذنب ارتكبه آخر ، يقول الكتاب المقدس « لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل(*) »(١) .

وتؤكد التوراة أن الابن لا يحمل شيئاً من إثم أبيه ، بل يجني كل ثمار عمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، تقول التوراة

---

* وقد أخبرنا الله تعالى في القرآن أن هذا انما أُنزل على موسى (أنظر سورة النجم ٣٥ ـ ٤٠)

(١) تثنية ٣٤ : ١٦

« النفس التي تخطىء هي تموت ، والابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون » [1] .

كأن التوراة في هذه العبارة ترد على أصحاب عقيدة الكفارة ، الذين يرون أن حكم الله على آدم بالموت وتحميل عيسى ذلك نيابة عنه، هذه العبارات تدحض دعواهم مؤكدة أن الموت جزاء المخطىء ، فالنفس التي تخطىء هي التي تستحق الموت والعقاب ، ولا عقاب على نفس أخرى مهما كان قربها من النفس المخطئة ، ومهما كانت الصلة بينهما .

والقرآن حديث الرحمن يزيد هذه الحقيقة وضوحاً ويجليها بياناً ، يقول عز وجل ﴿ **وكلَّ إنسان أَلزمناه طائره* في عنقه . ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ (الاسراء ١٣) .

نعم فكل إنسان مسئول وحده عن عمله ، وعما جنت يداه . وله عند الله سجل وكتاب تسطر فيه حركاته وسكناته وحسناته وسيئاته ، ويوم القيامة يخرج الكتاب ليشهد لصاحبه أو عليه بكل ما قدمت يداه يقول تبارك وتعالى ﴿ **أم لم ينبأ بما في صحف موسى، وإبراهيم الذي وفّى، ألا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ثم يُجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ (النجم ٣٥ ـ ٤٠) .

---

(١) حزقيال ١٨ : ٢٠

* ما طار عنه من عمل

ويوم القيامة يثاب المحسن ويعاقب المسيء ﴿ **فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها**﴾(*). هناك الجنة والنار، والتفرقة بين الشرير والبار. ويوم الحساب ﴿ **لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً**﴾(**). ففي هذا اليوم الرهيب لا يثاب أحد بخير أحد. ولا يعاقب إنسان عن ذنب آخر، ولو كان أقرب الأقربين ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ (عبس ٣٤ - ٣٧).

وراثة الإثم :

يرى أصحاب الكفارة أن الإنسان يرث آثام والديه. وأن الطفل يولد من بطن أمه ملوثاً بدنس الخطيئة الأولى «بالخطيئة حبلت بنا أمهاتنا»(***).

ولكن الإسلام يقرر أن الطبيعة الإنسانية كاملة نقية، وأن فطرة الإنسان طاهرة مبرأة من السوء والشر. وأن الخطيئة كسب لا وهب، وعرض حادث لا إرث وارث. فكم من أبوين صالحين أنجبا أولاداً فجرة. وكم من بيوت منحلة أنبتت علماء وقديسين، فالعابد قد ينجب الفاسد. ومن الفاسد يخرج العابد، وكما أن النار تولد النار. فهي أيضاً تخلف الرماد، وكثيراً ما شاهدنا أخوين شقيقين تربيا في نفس البيئة ولكنهما اختلفا في الطباع

---

* فصلت ٤٦

(**) لقمان ٣٣ .

(***) إن القائلين بالخطيئة الأولى والتي تحمل وزرها بنو آدم لا يستطيعون إفهام الناس الغاية الأسمى من خلق هذا الكون لأن فكرتهم هذه تتضمن مشاكل عديدة يصعب على المرء حلها . وبالتالي لا تعطيه جواباً شافياً عن السبب الحقيقي لوجوده على هذا الكون

والأخلاق ، قد يكونان ولدين أحدهما عالم والآخر عربيد ، وقد تكونان بنتين إحداهما عابدة والأخرى عاهرة . هذا إبراهيم الخليل عليه السلام والده كافر شرير ، وهذا نوح البار ولده في الدرك الأسفل من النار .

نعم يولد الإنسان من غير أن تكون الخطيئة مركوزة في فطرته ، وهو قابل للترقي بالإحسان ، وقابل للتدلي بالإساءة ، يستطيع أن يسمو إلى أعلى عليين ، كما يستطيع أن يهوي إلى أسفل سافلين ، كل حسب إيمانه وعمله ، يقول جل وعلا ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ (التين ٤ ـ ٦).

يقول الدكتور نظمي لوقا « لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القاتمة التي تطبع بصفة الخجل والتأثم كل أفعال المرء فيمضي في حياته مضي المريب المتردد . ولا يقبل عليها إقبال الواثق بسبب ما انقض ظهره من الوزر الموروث »[1] .

الصلب والرسالة :

يقول بولس « يوجد وسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح»[*]، والحقيقة أن الكهنة والأحبار قد استغلوا هذه النظرية فقد ادعوا أن عيسى قد أورثهم هذه السلطة ، سلطة الشفاعة بين الله والناس وجعل بيديهم مفاتيح السموات

(١) د . نظمي لوقا . محمد الرسالة والرسول ص ٨٤

* رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ٢ : ٥

والجنات ، وجعل في سلطتهم التحليل والتحريم ، والمنح والمنع فكل ما يفعله الإنسان خاضع لتقدير الكهنة خلفاء عيسى ، يحرمونه ويحللونه حسب هواهم وتبعاً لمشيئتهم ، يدخلون في رحمة الله من يشاءون ، ويطردون من رضوانه من يكرهون ، يقول عيسى لخليفته بطرس « وأنا أقول لك أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماء »(١)(*) .

ويورد يوحنا قول عيسى للتلاميذ « من غفرتم للناس خطاياه تغفر له ، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت »(**)

وقد ورث الكهنة هذه السلطة الضخمة ، بل هذه القدرة الإلهيه قدرة التحليل والتحريم ، والمنح والمنع ، والثواب والعقاب ، والقصاص والغفران .

أما الإسلام فليس فيه خطيئة موروثة تحتاج إلى إله أو نبي

---

(١) متى ١٦ : ١٩

* وبعد هذا الثناء على بطرس يقول له المسيح بعد أسطر قليلة : « إذهب عني يا شيطان . أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » . متىّ ١٦ : ٢٣ لوقا ٨ : ٣٣

** لنا على هذا النص ثلاث تعليقات :

الأول أنه بهذه الصورة تصبح عملية فداء المسيح للبشرية ـ التي هي أصل عقيدة النصارى المتمثلة في شخصية « المسيح المخلّص » ـ بلا معنى . لأن كل واحد من أتباعه صار بذلك مخلّصاً .

الثاني : أن إعطاء مثل هذه الخاصية لغير الله تجريد له ـ سبحانه ـ عن خصائصه .

الثالث : أن رحمة الله وسعت كل شيء وإنه إن شاء غفر الذنوب جميعاً ، فلو هذه الخاصية في يَدِ مَن لا يملكون مثل هذه الرحمة الواسعة ، فيحتمل حينئذٍ أن لا ينجو أحد من النار ، ولا يفوز أحد بالجنة فلا يجوز عندئذٍ أن تكون هذه الخاصية إلا في يد أرحم الراحمين .

يقوم بتكفيرها ، فكل نفس بما كسبت رهينة ، وليس في الإسلام وسيط بين الله والناس ، فليس أحد أحق بالوساطة من أحد ، بل كل الناس سواسية ، وكلهم عبيد الرحمن أقربهم إليه أتقاهم ، والحرم الإلهي مفتوح لكل تقي صالح راغب في الرحمة والرضوان ، والله أقرب إلى عباده من حبل الوريد ، ليس بينه وبينهم حجاب ، وبابه مفتوح لكل طارق ، ليس عليه سدنة ولا كهان ، يقول سبحانه لرسوله الكريم ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ (البقرة ١٨٦) .

وهو تبارك وتعالى ﴿ **يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل** ﴾ * .

جاء الإسلام فحرم الإيمان بالوساطة أو الشفاعة ، وقضى على المدعين والمضللين ، يقول سبحانه ﴿ **من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلا بما شاء** ﴾ (البقرة ٢٥٥) . حتى رسول الإسلام ليس وسيطاً بين الله والناس ، وإنما عبداً لله وهو مذكر وليس مسيطراً ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** ﴾ [1] ، ﴿ **فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً** ﴾ (الشورى ٤٨) .

وإذا كفر الناس بربهم وتمادوا في غيهم وشرورهم ، فلن

---

* كما جاء في الحديث : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » .
أخرجه مسلم ح (٢٧٥٩) كتاب التوبة . وأحمد في مسنده ٤ / ٣٩٥ و٤٠٤ .

(١) الغاشية ٢١ .

تنفعهم شفاعة ولن تجديهم وساطة ولو كانت من الرسول نفسه ، يقول الله لرسوله ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ (التوبة ٨٠) نعم ، فغفران الذنوب وقبول التوبة بيد الله وحده ، لا يشاركه فيه أحد ولا يتوسط عنده فيه فرد ، يقول سبحانه ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له** ﴾ . (الزمر ٥٣) .

إنهيار الأساس :

إن أساس فكرة الخطيئة قد انهار الآن ، ووضحت الحقيقة كالنور للعيان . نعم لقد أخطأ آدم ولكن الله سبحانه عفا عنه ، عصى آدم ربه وأكل وزوجته من الشجرة المحرمة ثم استيقظ ضميرهما وشعرا بمدى الخطأ الذي ارتكباه فندما على فعلهما ، واستغفرا الله وأنابا إليه فغفر لهما الغفور الرحيم . ورضي عنهما واجتباهما .

يقول القرآن الكريم ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾. (طه ١٢١ ـ ١٢٢) ، عفا الله عن آدم وحواء بمجرد توبتهما إليه واستغفارهما له ، ومن دلائل عفوه سبحانه أنه لم ينفذ فيهما حكم الموت الذي ورد في التوراة : « إنك يوم تأكل من هذه الشجرة موتاً تموت »(*). فلولا عفو الله عنهما ، لكان الجزاء الواجب توقيعه عليهما في الحال هو

* تكوين ١ : ١٧

الموت . ولكن الله قابل التوب ، وغافر الذنب ، قبل توبتهما وعفا عنهما .

واستخلف الله آدم وأبناءه في الأرض ، وجعل لهم الأرض ذلولاً يأكلون من أطيابها ، وخلافة الأرض مرتبة عليا وتشريف عظيم استشرفت إليه الملائكة ، يقول سبحانه ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها** ﴾(*) (البقرة ٣٠) لا فخلفاء الله ليسوا آثمين وليسوا مفسدين ، بل عباد مكرمون وبشر صالحون مفضلون على كثير من المخلوقات ، منعمون في الأرزاق والطيبات ، يقول جل وعلا ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾ (الاسراء ٧٠) .

ويقول سبحانه ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا** ﴾ (الأعراف ١١) استرد الإنسان كرامته ، وعادت له حريته ، وبرىء آدم مما ألصق به من تهم . ومما حاق بأبنائه من عيوب ، وعفا الله عنه ، واستخلفه في الأرض وكرمه وأبناءه وفضلهم على أعظم مخلوقاته .

ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن وضع آدم وحواء في الجنة لم يكن إلا وضعاً مؤقتاً ، ذلك أن الجنة ثواب كبير ومكافأة عظيمة ، ولكن الثواب والمكافأة لا تعطيان إلا لمن يعمل صالحاً ، وبقاء آدم وحواء في الجنة دون اختبار حصول على

---

* وهذه الآية تشير إلى أن الاستخلاف كان مقدراً قبل وقوع الخطيئة .

الثواب دون عمل ، لذلك فلم يكن وضع آدم في الجنة إلا ليذوق حلاوتها ويستمتع بنعيمها فترة حتى يعرف هو وأبناؤه ما ينتظرهم لو حسنت أعمالهم خلال فترة الإختبار التي سيقضونها على الأرض ، وحادث الأكل من الشجرة المحرمة لم يكن سبباً لنزول آدم وحواء إلى الأرض بل هو تقدير قدره الحكيم العليم بعلمه المطلق ليحق عليهما تقديره تعالى بجعلهما خلفاء له في الأرض ، فنزول آدم وحواء إلى الأرض كان تقديراً سماوياً معلوماً حتى لا يعطي الثواب والرضوان إلا لمن يستحقه بإيمانه وعمله فيعود إلى الجنة تفتح أبوابها لكل من كان جديراً بها ، مستحقاً لسكناها . أحداث عملية كثيرة تثبت عفو الله عن آدم وتؤكد بهتان فكرة توارث الإثم ، وتؤيد مسئولية كل إنسان عن عمله . نذكر بعضها كأمثلة : -

الحادث الأول: هو التفرقة في المعاملة بين ولدي آدم هابيل وقابيل ، ورضا الله عن الأول لصلاحه ، وسخطه على الثاني لضلاله ، رضي الله عن هابيل وتقبل منه ذبيحته وسخط على قابيل ورفض قربانه ، وأعلن لهما أن الجزاء على قدر العمل ، وأن صلاح هابيل سيدخله الجنة ، وإثم قابيل سيدخله النار ، وكان هذا الإعلان من الله مثار حقد الثاني على الأول ، ومبعث ضيق الشرير من الخير ، فحقد قابيل على هابيل وقتله.

يحدثنا سفر التكوين عن هذه الحادثة فيقول « وكان هابيل راعياً للغنم وكان قابيل عاملاً في الأرض ، وحدث بعد أيام أن قابيل قدّم من أثمار الأرض قرباناً للرب ، وقدّم هابيل أيضاً من

أبكار غنمه ومن سمانها ، فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ، ولكن إلى قابيل وقربانه لم ينظر ، فاغتاظ قابيل جداً وسقط وجهه فقال الرب لقابيل : لماذا اغتظت ، ولماذا سقط وجهك ، إن أحسنت فلا رفع ، وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها »[1] .

وفي القرآن الكريم ﴿ **وأتل عليهم نبأ ابنَيْ آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتُقُبلّ من أحدهما ولم يُتقبّل من الآخر . قال : لأقتلنك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين ، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ، فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ، قال : يا ويلتى أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين** ﴾ (المائدة ٢٧ ـ ٣١) .

فرق الله في المعاملة وفي الجزاء بين ولدي آدم . في الدنيا والآخرة كل حسب عمله ، ولو كان الله لم يعف عن آدم كما يقولون ، أو كانت الخطيئة تتوارث كما يدعون ، لكان جزاء ولدي آدم وحواء واحداً ، ولما كان هناك مبرر للرضى عن هذا والسخط عن ذاك ، ولإدخال هذا الجنة وحشر ذاك في السعير . وإنما هي

---

(١) تكوين ص ٤ : ٢ ـ ٧

العدالة الإلهية لا تأخذ البريء بجريرة الآثم وإنما تعطي لكل ذي حق حقه .

حادث آخر : هو إغراق الكافرين في عهد نوح وإبقاء الأتقياء الصالحين ، كثر الظلم على الأرض وفسد معظم الناس ، فغضب الله وبعث بطوفان من الماء غطى وجه الأرض ، وأغرق كل سكانها ، إلا الأبرار الصالحين ، نوحاً والذين آمنوا معه .

تحدثنا التوراة عن ذلك فتقول « ورأى الله الأرض فإذا هي فسدت ، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض ، فقال الله لنوح : نهاية كل بشر قد أتت أمامي ، لأن الأرض إمتلأت ظلماً منهم فها أنا مهلكهم مع الأرض، أصنع لنفسك فلكاً من خشب جفنير تجعل الفلك مساكن . . فها أنا آتٍ بطوفان من الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح جياة من السماء ، كل ما في الأرض يموت ، ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وإمرأتك ونساء بنيك معك . . فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان أربعين يوماً على الأرض وتكاثرت المياه ورفعت الفلك ، فارتفع عن الأرض وتعاظمت المياه ، وتكاثرت جداً على الأرض . فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض . . وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط » [1] .

محا الله كل الخطاة ولم يبق إلا البررة ، كل الأشرار والفجار قضى عليهم ولم يترك سوى الأتقياء ، يقول الرحمن لنوح

---

(١) تكوين ص ٦ ، ص ٧

﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرقون ﴾ إلى أن قال : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين إثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول ومن آمن ﴾ (هود ٣٧) .

فرض جدلي إذا كانت خطيئة آدم ما زالت موجودة إلى عهد نوح ، فقد قضى الله على كل أشرار الأرض ، ولم يبق إلا الأبرار الصالحون المؤمنون بالله ، نوحاً وأتباعه عمر بهم الأرض ، وجعلهم خلفاءه فيها . ذهب ابناء آدم الخاطئون ، وبقي أبناء نوح البارّون ، فأين آدم وأين خطيئته ، وأين وزرها العالق بالبشر !!؟

يقول سبحانه عن نوح ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم ﴾ إلى أن قال ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ (الأعراف ٥٩ ، ٦٤) .

وما حدث أيام نوح حدث في عهد لوط ، فقد كثرت شرور الناس وخاصة شرور قومه إذ اشتهر عنهم ممارسة الفحشاء والشذوذ الجنسي وكافة أنواع المعاصي ، وشاء سبحانه أن يهلك البلدة بشرور أبنائها « فأمطرت السماء ناراً أحرقت البلدة بسكانها ، ولم ينج إلا لوط والمؤمنون معه ، حتى زوجة لوط نفسها كانت من المهلكين » [١] .

---

(١) أنظر تكوين ص ١٨ ، ١٩

ويقول الرحمن عن لوط ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ [1] .

عفا الله عن آدم بعد ندمه واستغفاره ، وفرّق في الجزاء بين ولديه هابيل وقابيل ، وأنجى الصالحين وأهلك الكافرين ، وحاسب كلاً بحسب عمله .

الصلب والرسالة :

سؤال يلح عليّ منذ البداية ، يندفع إلى رأسي فأستمهله ، ولكنه يعود ليطل برأسه ويفرض نفسه .

هل كل ما فعله عيسى في حياته أنه صُلب؟ وهل جاء عيسى فقط ليُصلب بفرض صحة الرواية ؟ وهل كل رسالة عيسى للناس هي الصلب والكفارة ؟ .

لو كان هذا صحيحاً لنزلنا بالمسيح عيسى إلى مرتبة لا يرضاها له أي مؤمن بالله ، فكم من الأنبياء والأولياء قبل عيسى ومعه وبعده ، صُلبوا وعذبوا بلا ذنب ولا خطأ ، ولم يقدم هذا أو يؤخر في موضوع رسالتهم . فما من أحدٍ من الناس عاهد الله على الخلود ، وما من أحد من الناس خيره الله كيف يموت ،

---

(١) الأعراف ٨٠ ـ ٨٤

فالموت حق على العباد يدركهم في أي لحظة وبأي طريقة ، والأنبياء عباد كسائر الناس ليسوا خالدين ، يقول الرحمن لخاتم المرسلين ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾[1] ، ويقول له أيضاً ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (الزمر ٣٠) .

صلب ثلاثة أحدهم يزعمون أنه عيسى ، والآخران لصان فما الفرق ؟ إن الفرق يكمن في مبادىء هذا ومبادىء هذين ، وفي أعمال هذا وأعمال هذين ، في رسالة هذا ورسالة هذين ، إن قيمة عيسى ليس في أنه صلب أو لم يصلب وإنما قيمته وأهميته في رسالته العظيمة التي أرسله الله بها لهداية الناس . إن البشر في احتياجٍ إلى عيسى من أجل رسالته وتعاليمه السامية ، فذبح عيسى ـ على فرض حدوثه ـ حادث عادي يتكرر كل يوم ويحدث للأبرار والأشرار ، ولكن العبرة والقيمة بالرسالة ، جاء عيسى ليحمل للناس رسالة الهداية والخير ، وليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وليدعوهم إلى عبادة الإله الواحد ، وحادث صلبه ـ على فرض حدوثه ـ لا يزيد في هذه التعاليم العظيمة ولا ينقص منها ، فالتعاليم باقية والرسالة محفوظة ، وهي التي تخبر عن عيسى وحكمته وعظمته لقد جاء عيسى يدعو إلى الحب والإيثار وإلى الشفقة والرحمة ، وإلى اتباع الخير وترك المعاصي ، وسواء صلب أو لم يصلب فهذا لا يقدم ولا يؤخر في تعاليمه . فعيسى ليس محتاجاً إلى دموعنا نذرفها على موته،(*)

---

(١) الأحقاف ٩

* حقيقة لا مراء فيها أن النصارى يبكون وبمرارة على حداثة صلب المسيح ، وهم إزاء هذا=

ولا لقلوبنا تتفطر حـزناً على مـأساتـه ، فعيسى أكبر من ذلـك وأجلّ .

يحدثنا توما الأكويني عن شكوكه في صحة روايات الصلب فيقول « توجد آراء مختلفة . فيزعم البعض أن ابن الله (عيسى) كان يتجسد حتى ولو لـم يخطىء آدم ، ويرى البعض الآخر خلاف ذلك ، ويبدو أنه من الأصوب الإنتماء إلى الرأي الثاني ، فإن ما هو متعلق بإرادة الله وحدها لسى لنا أن نعرفه إلا بالمقدار الذي يكشفه لنا الله بواسطة كتبه المقدسة ، والحال أن الكتاب يقول لنا دائماً إن خطيئة الإنسان الأول هي الدافع لتجسد ابن الله ، وعليه يظهر أن هذا السر إنما رتبه الله كدواء للخطيئة بحيث أنه لولا الخطيئة لما كان التجسد »[1] .

سواء صلب عيسى أو قتل أو مـات، فهو عـلى أي الأحوال قـد ذهب ولم تبق إلا رسالته ، ومات محمد أو قتل ، فقد ذهب أيضاً ولم تبق سوى رسالته ، يقول سبحانه ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً** ﴾ (آل عمران ١٤٤) .

هذا وذاك لا ينقص ولا يزيد ، ولا يبدل ولا يغير في رسالة

= أمام خيارين : إما أن يعتقدوا بألوهيته والإله لا يموت أو أن يعتقدوا أنه قد صُلب ومـات فلا يكونْ بـذلك إلهـاً . أما في الإسـلام فالقضيـة محسومـة ولله الحمد والمنّـة . فلم يكن المسيح إلهاً ولم يُصلب .

(١) فرنسيس فرييه التجسد . تعريب لويس أبادير ص ١٣٤ وما بعدها .

عيسى أو محمد أو غيرهم من الرسل الكرام ، فعلى أي وضعٍ كانت نهاية الرسول على الأرض ، فهذا لا يضيف أو يحذف من رسالته وبلاغه ، فالرسل إلى زوال والحق باقٍ يحدث الأجيال ، وعيسى ومحمد وباقي الرسل ، ليس أحد منهم موجوداً الآن ليحدثنا عن مضمون رسالته ومفهوم تعاليمه ، لقد ذهبوا جميعاً ولم تبق إلا تعاليم رب العالمين . التي حملها هؤلاء الرسل إلى البشر ، تعاليم غالية هي الباقية واتباعها هو مفتاح الخير والسعادة في الدارين .

رأي الإسلام :

قبل الحديث عن رأي الإسلام في صلب المسيح يلزمنا الرجوع إلى فكرة المخلص التي كان عليها رجاء بني إسرائيل وقت ميلاد عيسى وقبله بزمن طويل ، عندما كانت بلادهم مستعمرة رومانية صغيرة ، يذيق المحتلون أهلها الأهوال والوبال ، ويتطلع الشعب المستعبد إلى بطل يخرج من بين الصفوف ويقودهم إلى التحرر ويعيد إليهم أمجاد داود وسليمان ، ويخضع لسلطانهم الأمم المجاورة ، ويتنبأ الأنبياء القدامى عن هذا البطل المخلّص فيقول عنه أرميا « في أيامه يخلص يهوذا ويسكن إسرائيل آمناً »[1] .

ويقول ميخا مناجياً مدينة داود المتوقع أن يخرج منها البطل الموعود « أما أنت يا بيت لحم وأنت صغيرة أنت تكوني بين ألوف

---

(١) أرميا ٢٢ : ٦

يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل »[١] .

فرح بنو إسرائيل بعيسى الذي أتى ليخلصهم من العبودية ، وليخضع الأمم والشعوب لسلطانهم وأخذوا يعدون العدة للمناداة به قائداً لهم وزعيماً ، وتنصيبه ملكاً عليهم ليقوم بتنظيم صفوفهم وقيادتهم في حرب التحرير، وكانوا ينادونه كثيراً بلقب «ملك اليهود » وقد ظهر ذلك واضحاً أيضاً في الإستقبال الكبير الذي استقبله به أهل أورشليم العاصمة عند دخوله إليها قبل الفصح اليهودي ، إذ فرشوا ملابسهم في طريق موكبه وأخذوا يلوحون له بالرياحين والأغصان مرددين « السلام يا ملك اليهود » ، « تبارك الآتي باسم الرب » .

بل لقد عزم اليهود على تنصيب عيسى رسمياً ملكاً عليهم ، ولكنه رفض العرض وهرب من الإحتفال ، يقول يوحنا « وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً إنصرف أيضاً إلى الجبل وحده »[٢] .

أتوا إليه مرة يستفتونه في شأن الضرائب التي يثقلهم بها الرومان . وتوهموا أنه سيدعوهم إلى الإمتناع عن تأديتها عصياناً وتمرداً على المغتصبين ، ولكنه أمرهم بدفع الجزية والمكوس

---

(١) ميخا ٥ : ٢

(٢) يوحنا ٦ / ١٥

لقيصر وبالخضوع لكافة السلاطين « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . (*)

وتحطمت آمال اليهود في عيسى ، وذابت أحلامهم في الخلاص على يديه ، وفي استعادة المجد الغابر ، وكانت صدمتهم الكبيرة فيه كافية لتحويل الحب إلى كراهية .

يصور لنا بترسون سميث مدى الحقد والمقت الذي شعر به بنو إسرائيل تجاه عيسى بعد صدمتهم فيه ، متحدثاً عن يهوذا تلميذ عيسى الذي وشى به لشعوره بنفس المرارة تجاه من وضعوا عليه كل آمالهم فحطمها ، يقول سميث « الحق أن يهوذا لم يكن مجرد محب للمال ساع إليه ، ولثلاث سنوات خلت كان شاباً يهودياً نقياً نابهاً ، شغف بدينه وكبرت آماله في (المسيح المنتظر) ، وترك كل شيء وتبع المسيح واستمر يسير معه بعد ما تركه الآخرون ولم يعودوا يتبعونه ، وأكبر الظن أن مطامعه التي كانت في آمان خابت وملأت خيبتها قلبه مرارة ، ساقته إلى النفرة من المسيح فالعداوة له ثم الخيانة » (1) .

كره بنو اسرائيل عيسى وطاردوه وحاربوه ، وحاولوا قتله ولكن الله سبحانه لم يرد لعبده الصالح الهلاك بأيدي سفاكي الشعوب ، هرب عيسى منهم ورفعه ربه إليه ، ووضع شبهه على آخر ، صلب بدلاً منه .

---

* أنظر مرقس ١٢ : ١٧

(١) بترسون سميث ـ حياة يسوع ص ٢٨٧ وبعدها .

المصلوب خائن عيسى :

يأتي القرآن ليعلن هذه الحقيقة ، التي رفعت قدر عيسى وردت عنه الشبهات ، الحقيقة التي تؤكد أن الله سبحانه لم يرض لرسوله الكريم عيسى أن يذبح بأيدي حثالة الشعوب وأنجس الأمم ، بل لقد هيأ له الإعزاز والتكريم ورد عنه الكيد والأذى ، وكف عنه الإعتداء ورفعه إليه ، وجعل المصير الدون الذي أرادوه لنبيه هو مصير تلميذه الخائن الذي وشى به عند أعدائه ، فرد الله خنجر الخائن إلى صدره وأغمد نصله في قلبه ، وأماته الميتة التي أرادها لمعلمه العظيم .

ويذكر القرآن استجابة الله لتضرعات نبيه ورفعه إلى السماء وتطهيره من الكافرين ، وإنقاذه من الأعداء والكارهين ، وجعل مكانه في العلا بين المقربين ، يقول جل وعلا ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ (آل عمران ٥٤ ـ ٥٥) .

هذا هو القرآن يكذب ادعاءات ابناء صهيون بصلب عيسى ، ويفند افتراءاتهم ببغاء أمه ، ويؤكد أن عيسى إبن البتول لم يذبح بأيدي سفاحي الشعوب ، بل رفعه الله إليه ، وألقى شبهه على تلميذه الخائن ، فعذب وصلب بدلاً من معلمه واليهود يظنونه عدوهم عيسى ، تصور بنو إسرائيل أنهم قتلوا عيسى رسول الله ،

(*) تجدر الإشارة إلى أن الأناجيل ذكرت أن السبب في خيانة يهوذا رشوة اليهود له ثلاثين قطعة من الفضة مع أنه كان أميناً على صندوق النفقات آنذاك كما يذكر يوحنا ١٣ : ٢٩ فكان بإمكانه أخذها من الصندوق من غير أن يلزمه ذلك التضحية بإبن الإله!!!

ولكنهم قتلوا الخائن يهوذا الذي وشى بمعلمه ، فأذاقه الله جزاء خيانته وألقاه في الحفرة التي حفرها لسيده ، وأخذه أصحابه الذين وشى إليهم فعذبوه وصلبوه مع اللصين ظانين أنه عيسى ، وعيسى جالس في الملكوت يتنعم مع الملائكة والصديقين ، يقول علام الغيوب داحضاً ادعاءات اليهود والكفار ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍ منه . ما لهم به من علمٍ إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ (النساء ١٥٧ ـ ١٥٨) .

هذه الحقيقة التي أعلنها القرآن في وضوح والتي رفع بها قدر عيسى وأعلى مكانته ، ليست بدعاً أتى به القرآن ، وليست جديدة على أصحاب الضمير والوجدان ، فهذا الذي بينه القرآن وجلاه ، تذكره التوراة ، بل ونلمس في الأناجيل نفسها صداه .

تحدثنا التوراة أن الله استجاب لتضرعات مسيحه وخلصه من أعدائه وأسقطهم على الأرض عندما أتوا للقبض عليه ورفعه هو إلى السماء ، يترنم داود في مزاميره بقوله « الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه يستجيبه من سماء قدسه بجبروت خلاص يمينه » (مزمور ٢٠) .

هذا الذي يقوله داود يطابق ما ورد في الأناجيل عن لحظة إتيان اليهود للقبض على المسيح عيسى فالأناجيل تقرر أنه عندما تحدث إليهم وعرفهم بنفسه ، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض، يقول يوحنا «فلما قال لهم إني أنا هو رجعوا إلى الوراء

وسقطوا على الأرض »[1] وفي هذه اللحظة رفع الله نبيه إليه وألقى شبهه على تلميذه الخائن ، فلما أفاق اليهود من سقطتهم لم يجدوا أمامهم سوى يهوذا فساقوه إلى الذبح.

هذه الحقيقة نلمس صداها في الأناجيل ، تحدثنا الأناجيل عن قدرة عيسى العجيبة على التخفي وعلى تغيير شكله وهيئته بحيث أن كثيرين من أصدقائه بل وتلاميذه كانوا لا يستطيعون معرفته ، يقوال لوقا عن إحدى المرات التي لم يستطع فيها إثنان من المقربين لعيسى التعرف عليه رغم مقابلتهما له في الطريق ، وتعمد عيسى السير معهما والحديث إليهما دون أن يكتشفا شخصيته ، يقول لوقا : « وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما ، ولكن أمسكت عيونهما عن معرفته »[2] .

ليس هذا فحسب بل إن الأناجيل تورد كثيراً من المحاولات المتعددة التي حاول فيها اليهود القبض على عيسى أو النيل منه ، ولكنه كان في كل مرة رغم التفافهم حوله واقترابهم منه يختفي ويهرب منهم بأعجوبة ، ويمر من بينهم كالشهاب ، ويتلاشى في وسطهم كالملح المذاب ، ولعل هذه أيضاً إحدى المعجزات التي أيد الله بها نبيه لحمايته من أعدائه وكف أذاهم عنه(*).

---

(١) يوحنا ١٨ : ٦

(٢) لوقا ٢٤ : ١٣ ـ ١٦

* بل قد تحداهم مرات عديدة بأنهم سيأتون يوماً ليقبضوا عليه وحينذاك لن يجدوه قائلاً لهم : « أنا أمضي وستطلبونني وتموتون في خطيتكم . حيث أمضي أنا ، لا تقدرون أنتم أن تأتوا . . . أنتم من أسفل ، أما أنا فمن فوق ، أنتم من هذا العالم أما أنا فلست من هذا العالم » يوحنا ٨ : ٢١ ـ ٢٨ ألا يوافق هذا النص قول الله تعالى في القرآن : « بل =

يحدثنا يوحنا عن بعض المرات التي حاول اليهود فيها إمساك عيسى فاشلين ، والتي تجاسروا فيها على إلقاء الأيدي على رسول الرحمن فردوا مخذولين ، في إحدى هذه المرات كان عيسى يتحدث في الهيكل عن الله الذي أرسله بتعاليم الهدى والرشاد ، يقول يوحنا « فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلاً : تعرفونني وتعرفون من أين أنا ومن نفسي لم آت ، بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه ، أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني ؟ فطلبوا أن يمسكوه ولم يلق أحد يداً عليه »[1] .

ومرة أخرى حاول فيها أعداء الحق إسكات صوت الحق ، فرُدوا على أعقابهم خاسرين، فبينما كان عيسى يخطب في الجموع في اليوم السابق على عيد الفصح اليهودي ، إختلف الناس حوله أهو نبي حقاً أم دعي ؟ يقول يوحنا « فحدث انشقاق في الجمع بسببه ، وكان قوم منهم يريدون أن يمسكوه لكن لم يلق أحد عليه الأيادي»[2] .

ومرة ثالثة جرت فيها محادثة بين عيسى واليهود في الهيكل ، واختلفت الآراء بينه وبينهم فانقضوا عليه وأرادوا قتله ، وأمسكوا بالحجارة ليرجموه ، ولكنه اختفى من بينهم دون أن يشعروا ، يقول يوحنا « فرفعوا حجارة ليرجموه ، أما يسوع فاختفى

= رفعه الله إليه » ؟ وأشير هنا إلى أن هذا التنبوء وهذا التحدي من المسيح لليهود يتناقض مع ما ترويه الأناجيل من أن اليهود طلبوه فوجدوه وتسببوا في صلبه إلا إذا كانت الحقيقة ما ذكره القرآن من أنهم « ما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم » !!

(١) يوحنا ٧ : ٢٧ ـ ٣٠

(٢) يوحنا ١٨ : ٤٣ ـ ٤٤

وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا»[٣].

وفي مرة رابعة اشتد الجدل بينه وبين اليهود، وحمي وطيس المناقشة «فطلبوا أيضاً أن يمسكوه فخرج من أيديهم»[١].

وخامسة .. وسادسة .. ومرات .. ومرات .. بسط الله فيها حمايته على رسوله الأمين، ورد عنه كيد المعتدين، وكف عنه الأذى، ومنع عنه السوء، وأحاطه بالرعاية والعناية والتكريم. يقول سبحانه لرسوله عيسى **﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾**[٢].

يحدثنا الحواري برنابا في إنجيله عن الحقيقة كلها في جلاء ووضوح، فيورد حديث عيسى عن إخبار الله له بخيانة تلميذه يهوذا، وبأنه سبحانه سينقذه من أيدي أعدائه وسيجعل الموت مصير الخائن الذي وشى به(*)، يقول عيسى لتلميذه برنابا «إعلم يا برنابا أنه سيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود، وإني على يقين من أن من يبيعني يقتل بإسمي، لأن الله سيبعدني من

(٣) يوحنا ٨ : ٥٩

(١) يوحنا ١٠ : ٢٩

(٢) المائدة ١٤

* جاء في إنجيل برنابا ما يلي: «إن واحداً منكم سيسلمني فأُباع كالخروف، ولكن ويل له لأنه سيتم ما قاله داود أبونا عنه أنه «سيسقط في الهوة التي أعدها للآخرين». (أنظر انجيل برنابا ٢١٣ : ٢٤ - ٢٦ - صفحة ٢٨٧ تحقيق سيف الله أحمد فاصل. ط - دار القلم - دمشق).

الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي »(**) .

ويستطرد برنابا شارحاً الكيفية التي رفع بها عيسى إلى السماء عندما جاء يهوذا مع الجنود للقبض عليه ، فأنقذ الله رسوله من أيديهم ، وجرع التلميذ الفاسد الكأس التي أعدها لمعلمه ، يقول برنابا « ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جمع غفير ، وكان التلاميذ الأحد عشر نياماً ، فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله .. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع ، فأتى الله العجيب بأمر عجيب ، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه ، فصار شبيهاً بيسوع حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع ، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ، لذلك تعجبنا وأجبنا : أنت يا سيدي معلمنا ، أنسيتنا الآن ؟ ودخل الجنود فأخذوا يهوذا وأوثقوه ظانين أنه يسوع»(*) .

ويؤكد القرآن الحقيقة : ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍ منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ . (سورة النساء ١٥٧) .

هكذا أنقذ الله رسوله عيسى عليه السلام وأعز جانبه ورفع شأنه ، وجرع تلميذه الخائن جزاء خيانته ، فألقى عليه صورة عيسى وصوته ، وجعله يموت بأيدي أصدقائه ، أما عيسى الأمين

** برنابا ١١٢ : ١٤ .

* برنابا ٢١٥ : ١ ـ ٨ و٢١٦ : ١ ـ ١٣ .

فقد رفعه الله إلى السماء ، ووضعه مع الصديقين والأبرار ، أنقذ الله رسوله عيسى من الصلب كما أنقذ رسوله المصطفى من أيدي المشركين ، وخذل محاولاتهم الآثمة لايذائه وقتله ، ونصره عليهم أجمعين ، ورفع الله رسوله عيسى إلى السماء كما رفع من قبله رسله الكرام إدريس واليشع والياس وغيرهم من الأنبياء الصادقين .

وسبحان ناصر الحق ، وزاهق الباطل ، ومعلي شأن الصالحين ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ (الروم ٤٧) .

الفصل السادس

تأليه عيسى

طبيعة الاله عيسى:

قالوا بتأليه عيسى، ولم يتفقوا على كنه هذا التأليه، وعلى طبيعة هذا الانسان المؤله.. هل هو من طبيعة إلهية خالصة أم من طبيعتين إحداهما إلهية والأخرى إنسانية؟ وهل امتزجت هاتان الطبيعتان في عيسى أم احتفظت كل منهما بخواصها ومزاياها؟ وما نتيجة هذا الامتزاج على فرض حدوثه؟ هل تمخض عن طبيعة نصفها إلهي ونصفها إنساني أم تولدت عنه طبيعة مغايرة تماماً عن كلا الطبيعتين الالهية والانسانية؟.

المعجزة والإيمان:

أسئلة كثيرة حول عيسى جرها القول بتأليهه، أسئلة اختلف

في الاجابة عليها دعاة التأليه أنفسهم، وانقسموا فيما بينهم شيعا وأحزاباً، وتناثروا مذاهب وطوائف.

تأليه العظماء:

وما فعله الناس مع عيسى فعلوه مع غيره من الأنبياء والحكماء والقادة والزعماء، فعلوه مع بوذا في الهند، وفعلوه مع الحكيم كونفوشيوس في الصين ومع زرادشت في فارس، ومع برومثيوس في اليونان، ومع الآلاف غيرهم في مختلف الأزمان والبقاع.

وحتى في الإسلام نفسه، دين الوحدانية الخالص، فإننا نلحظ فيه محاولات قتلت في مهدها لتأليه إمام الموحدين. محمد عليه الصلاة والسلام، ولتأليه أتباعه من بعده.

يروي قيس بن سعد «أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فقلت: رسول الله أحق أن يسجد له. قال: فأتيت النبي فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك، قال: أرأيت لو مررت بقبري، أكنت تسجد له؟ قال: قلت «لا»قال: «فلا تفعلوا»(*) .

قال له أحد أصحابه يوماً: أنت سيدنا وذو الطول علينا، فرد الرسول غاضباً: السيد الله، لست سيداً لأحد، لا يستهوينكم الشيطان، إني لا أريد أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله تعالى، فأنا عبد الله ورسوله(**) .

وكان عليه السلام ينهى أصحابه كثيراً عن اطرائه أو مدحه

(*) أخرجه أبو داود (٢١٤٠) في النكاح بإسناد حسن .

(**) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢١١ ، وأحمد في المسند ٤/٢٤ .

ويقول لهم «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم(*)».

ومع كل هذه التحذيرات، فحين مات عليه السلام، لم يصدق الناس، حتى عمر بن الخطاب أنكر الخبر وهم بقتل من نقلوه إليه، لولا أن تلا أبو بكر على الناس ما تركه لهم محمد قبل موته ينطق ببشريته، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾**

وهذا علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته، الذي بلغ من علمه وحكمته أن قال الرسول عنه «أنا خزانة العلم وعلي بابها»(**)، على هذا ألّهه الناس في حياته، وألهوه بعد موته، وما زال بعضهم يؤلهه حتى الآن.

ظهر منهم قوم ممن دخلوا الإسلام ادعوا تأليهه، فلما علم بأمرهم دعاهم إليه وقال لهم: ويلكم قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا، قال: ويلكم، إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون، إن أطعت الله أثابني إن شاء. وإن عصيته خشيت أن يعذبني فاتقوا وارجعوا فأبوا، ولما أصروا على رأيهم أمر بطرحهم في النار(**). ومع ذلك فقد بقي بعد موت علي من

(*) رواه البغوي في شرح السنة ١٣ / ٢٤٦ وقال: هذا حديث صحيح أخرجه محمد عن الحميدي عن سفيان.
آل عمران ١٤٤

(**) رواه الترمذي (٣٧٢٥) والحاكم ١٢٦/٣ وصححه وتعقبه الذهبي قائلاً: بل موضوع. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٤٣٩ وهو كمال قال الذهبي.

(**) ولما طرحهم في النار قالوا له: «الآن أيقنا بأنك أنت الإله لأنه لا يحرق بالنار إلا الإله» وهؤلاء هم السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ. أنظر الفصل في الملل والنحل =

يدعي بتأليهه، فهذه طائفة النصيرية تدعي أن الله قد حل في جسد علي بن أبي طالب وتكلم على لسانه، وما زال غلاة الشيعة حتى يومنا هذا يسلخون علياً عن جنس البشر. نقول حتى يومنا هذا، في عصر العلم والمدنية، وفي زمن الصواريخ والأقمار ما زال الناس يؤلهون العظماء والأفذاذ، والزعماء والقادة، ويجعلونهم أرباباً من دون الله. فهذا إمبراطور اليابان يدعونه ابن السماء ويؤلهونه، وهذا زعيم الصين ماوتسي تونج وصل حب أتباعه له وإيمانهم به درجة التقديس، يقفون طوال الليل أمام قصره حتى بزوغ الفجر ينتظرون خروجه منيراً مع ضوء الشمس. ويحملون تعاليمه في كتابه الأحمر في غدوهم ورواحهم، وفي ملابسهم ومنازلهم وأعمالهم، أكثر مما يحمل أتباع الله كتبهم المقدسة، وأغلب الظن أنهم بعد موته سيعبدونه.(**)

يقول عز وجل: **﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾**[1].

تعلّلات التأليه:

يتعلل دعاة تأليه عيسى ببعض حوادث وألفاظ يقررون أنها

= ١١/٢ والتبصير في الدين ١٢٣ والفرق بين الفرق ٢٢٣ واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ .

** بل قد كفروا به ولعنوه ، كان رباً لهم ، والآن يزيحون تعاليمه ومبادئه ، يخرجون عنها بعد أن أصبحت بالية لا تصلح لتقيم حضارة ، فاستبدلوها بالمبادىء الرأسمالية الغربية مؤخراً.

(١) الأعراف ١٧٨ - ١٧٩

هي التي دعتهم إلى إبعاد عيسى عن دائرة البشر ورفعه إلى مرتبة الآلهة، ونحاول في هذه الفترة إيراد هذه الأسباب، ومناقشتها ليتضح لنا مدى نصيبها من الصحة.

الميلاد العذراوي:

كان ميلاد عيسى من عذراء منفذاً للقول بتأليهه، فمادام أنه قد ولد دون أب، فلا بد أن الله أبوه، وأنه ليس من جنس الناس(*).

يقول لوقا على لسان جبريل عندما بشر مريم بغلامها الزكي «الروح القدس تحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك المولود منك يدعى ابن الله»[1].

ويقول يس منصور: «لو لم يولد المسيح (عيسى) من عذراء لكان مجرد إنسان.. فابن الله الأزلي يليق به في حالة تأنسه أن يولد ميلاداً عذراوياً»[2].

هذا الميلاد العذراوي لعيسى رغم إعجازه وأهميته فلا يقاس بشيء في جانب القدرة الالهية ولا يرفع عيسى عن مرتبة الآدميين، ذلك أن خلق عيسى من أنثى دون ذكر إنماهو إتمام لدورة القدرة الالهية في خلق الانسان، فالانسانُ الأول من أين جاء؟ يقول سبحانه «أولاً يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك

(*) لم لم يقولوا ذلك في آدم وهو الذي لا أب له ؟؟

(1) لوقا ص ١ : ٣٥

(2) يس منصور : بيان الحق جـ ٢ ص ١٢٤

شيئاً». (*) آدم عليه السلام خلق من العدم دون ذكر ولا أنثى، وحواء خلقت من ذكر دون أنثى، والانسان العادي خلق من ذكر وأنثى، ثم تمت دورة القدرة الإلهية بخلق عيسى الإنسان من أنثى دون ذكر فهذه صور ميلاد البشر، وكل صورة منها تناظر الأخرى في الدلالة على الخالق العظيم، ليس منها ما هو هين وما هو صعب في جانب الله.

بل إن خلق الانسان العادي من ذكر وأنثى لا يقل عظمة عن باقي معجزات الخلق، ولا يغض من شعورنا باعجازها سوى تكرارها اليومي، فهذه القدرة التي تخلق النطفة وتودعها رحم الأم، وتنتقل بها إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ثم لحم يكسوها، إلى جنين في صورة إنسان ذي جوارح. يقول سبحانه: **﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾** (المؤمنون ١٢ - ١٤).

كل دور من هذه الأدوار في المولود الواحد تعجز الانسانية كلها عن أن تقوم له: **﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له.. إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾** (الحج ٧٣).

أما عن خلق حواء من ذكر دون أنثى، فهي أدخل في باب القدرة من خلق عيسى من أنثى بلا ذكر، فالأنثى بطبيعتها وبحكم تكوينها الجسدي قد خلقت للحمل والولادة، ومن المحتمل جداً

* الاستشهاد غير سديد، إذ كل إنسان لم يكن قبل أن يولد شيئاً

أن تحمل المرأة لأوهى الأسباب طبيعية أو صناعية، أما الرجل فليس من طبيعتـه الحمل والـولادة وليس في تكـوينـه إنجـاب الأطفال.

قلنا خلق حواء المرأة وخلق عيسى الطفل، وهنا معجزة أخرى في خلق حواء، لقد خلقت حواء امرأة كاملة التكوين، نامية الجسم والعقل ولم تمر بالأدوار التي يمر بها الأطفال لتنمو أجسادهم، أما عيسى فقد خلق طفلاً رضيعاً تربى في حجر أمه حتى كبر مع الأيام والسنين.

أما آدم عليه السلام، فمعجزة خلقه رجلاً كاملاً من العدم، من تراب الأرض دون ذكر ولا أنثى أدخل في باب القدرة الالهية من خلق عيسى من غير أب، تحدثنا التوراة عن خلق آدم فتقول «وجبل الرب الاله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية»[1].

من التراب صار آدم في لحظة رجلاً كاملاً، ولم يتوسط في خلقه بشر من أي نوع، ولكن عيسى بمساعدة أمه احتاج لتسعة أشهر ظل في بطنها لكي يخرج طفلاً، واحتاج إلى ثلاثين سنة عاشها على الأرض ليصير رجلاً كأبيه آدم.

فإذا كان عيسى الإنسان قد صار ابن الله لولادته من أم دون أب، فآدم الانسان الذي وجد دون أب ولا أم يكـون هو الله نفسه.. ولكن خلق هذا وذاك، وولادة هذه وتلك لا يقاس بشيء

---

(١) تكوين ص ٢ : ٧

في جانب قدرة الله وعظمته الذي إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

يقول تبارك وتعالى: **﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾**)آل عمران ٥٩).

معجزات عيسى:

كانت معجزات عيسى باباً آخر نفذت منه دعوى القول بتأليهه فما دام يشفي المرضى ويحيي الموتى، فهو الله نفسه أتى من السماء ونزل إلى الأرض ليعرض على الناس قدرات الآلهة(*).

يروي لنا الحواري برنابا ما فعله بعض السذج بتحريض الوثنيين بعد قيام عيسى باحياء ابن أرملة نايين من الموت، يقول برنابا في إنجيله «وكان جيش الرومان في ذلك الوقت في اليهودية لأن بلادنا كانت خاضعة لهم بسبب خطايا أسلافنا، وكانت عادة الرومان أن يدعوا كل من فعل شيئاً جديداً فيه نفع للشعب إلها ويعبدوه، فلما كان بعض هؤلاء الجنود في نايين وبخوا واحداً بعد الآخر قائلين: «لقد زاركم اليوم أحد آلهتكم وأنتم لا تكترثون له، حقاً لو زارتنا آلهتنا لأعطيناهم كل مالنا، فوسوس الشيطان بهذا الأسلوب من الكلام حتى أنه أثار شغباً بين شعب نايين فقال قوم منهم: إن الذي زارنا هو إلهنا، وقال آخرون: إن الله لا يرى، فلم يره أحد ولا موسى عبده فليس هو الله بل بالحري ابنه. وقال آخرون: إنه ليس الله ولا ابن الله لأنه ليس لله جسد بل هو نبي عظيم»(*).

---

* إنجيل برنابا ٤٨ : ١ ـ ١٢ .

وما حدث لعيسى من أجل معجزاته، حدث لتابعين صغيرين من أتباعه هما بولس وبرنابا، عندما شفى بولس رجلاً عاجز الرجلين في بلدة لسترة، فقد اعتقد البسطاء وعباد الأوثان أن بولس وبرنابا إلهين من وارد السماء، فأطلقوا عليهما أسماء الآلهة وأقاموا لهما المهرجانات والاحتفالات، ووضعوا أكاليل الزهور على أبواب المدينة، وأحضروا الكباش والثيران يذبحونها للإلهين بولس وبرنابا، يقول كتاب الأعمال «فالجموع لما رأوا ما فعل بولس رفعوا صوتهم قائلين: إن الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا فكانوا يدعون برنابا زفس وبولس هرمس إذ كان هو المتقدم في الكلام، فأتى كاهن زفس الذي كان قدام المدينة بثيران وأكاليل عند الأبواب مع الجموع وكان يريد أن يذبح»(١).

وتأليه ذوي المعجزات لم يقتصر على عيسى وتلاميذه ولم يبدأ بهم ولم ينته بعدهم، فقد رأينا كم أله الناس الأنبياء وكم صنعوا الأوثان للعظماء، قبل عيسى ومعه وبعده، وفي كافة الأزمان والأرجاء(*).

وتأليه البشر الذين صنعوا المعجزات نسيان لأصل المعجزات ومجريها وصاحبها، فعيسى وغيره من الأنبياء الذين ماثلوه في معجزاته، هؤلاء جميعاً ليسوا إلا آلات وأدوات في يد

---

(١) أعمال ص ١٤ : ١١ - ١٣

* إن كان السبب في تأليه عيسى عليه السلام أنه أحيا الموتى وشفى المرضى والبرص، فقد أحيا أليشع ميتاً وشفى أبرصاً، وكذلك أحيا حزقيال الأموات وهذه كلها مكتوبة في العهد القديم الذي تفرض الكنيسة على النصارى اتباعه وتخرج من ملتها من لم يؤمن به! (أنظر الملوك الثاني ٤ : ٢٣ - ٢٦) فهل يصير حزقيال وأشعياء آلهة قياساً على ما قيل في عيسى عليه السلام.

الرحمن سخرهم لاظهار المعجزات واستخدمهم لاتيان الخوارق، وهو سبحانه صاحب المعجزات يعطي منها ما شاء لمن يشاء أنى يشاء، ليصدق الناس الرسل ويؤمنوا بالأنبياء.

وليست المعجزات على فرض صحتها ونسبتها لله وليس للمردة والشياطين، إلا وسيلة مناسبة لزمانها لحمل الناس على الإيمان .

يقول سبحانه : **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾** (الأنعام ١٠٩).

لفظ إله:

يطلق لفظ «إله» في الكتب المقدسة على بعض الأنبياء على سبيل المجاز تعبيراً عن قربهم من الله كسائر أبناء الله الصالحين والبشر المؤمنين.

يقول عيسى موضحاً المجاز «إنما بنوة الله بالأعمال». (*)

ويقول لأتباعه عند صعوده إلى السماء وإنقاذه من أعدائه « إني أصعد إلى أبي وأبيكم(**) وإلهي وإلهكم »[1] .

نعم فبنوة الله ليست باللحم والدم، وليست بالتناسل والتوالد

---

* بحثت عن هذه العبارة في الاناجيل الأربعة فلم أجدها وقد أشار المؤلف في كتابه « الله واحد أم ثالوث ٩٩ » إلى وجود هذه العبارة في يوحنا ٨ : ٤٢ ورجعت إلى نفس الإحالة فلم أجدها أيضاً

** لاحظ أنه لم يقل « أبي وإلهكم » وإنما قال : « أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم » فيكون لنتفاء ألوهية المسيح مأخوذ من الاناجيل نفسها .

(١) يوحنا ٢٠ : ١٨

وإنما بالعمل الصالح، وكلما صدق الإيمان وثبت اليقين وحسنت النيات والأعمال، كلما زاد اقتراب الانسان من خالقه وصار قريباً من ربه كأنه ابنه ، فنحن أبناء الله(*) وصنع يديه .

لفظ رب:

في إنجيل لوقا نرى عيسى يصلي لله، وأثناء الصلاة يرقبه التلاميذ، وعندما يفرغ منها يأتي إليه أحد تلاميذه قائلاً «يا رب علمنا أن نصلي كما علم يوحنا تلاميذه»[1].

عيسى الانسان يصلي لله ويضرع إليه فيشاهده التلاميذ ويطلبون منه أن يعلمهم كيفية الصلاة، فهو النبي المرسل الذي يعرف التعاليم والشرائع والطقوس والدعوات، فليعلمهم كيفية الصلاة والتقرب لله كما علم النبي يوحنا تلاميذه.

وفي الاصحاح السادس عشر من إنجيل متى نرى محاورة بين عيسى وتلميذه بطرس يطلق فيها الأخير على عيسى نفس اللقب «رب» يقول متى: « فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره قائلاً: حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا، فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان ، أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس »[2] .

ونبحث عن تفسير كلمة «رب» التي أطلقت على عيسى فنجد التفسير في صلب الأناجيل نفسها، ففي الاصحاح الأول من

---

* بل إننا نرفض إطلاق هذا اللفظ حقيقة كان أم مجازاً .

(١) يوحنا . ١ : ٣٤ - ٣٦

(٢) متى ١٦ : ٢٢ - ٢٣

إنجيل يوحنا يروي لنا المذكور أن عيسى في بداية دعوته كان يسير في الطريق بمفرده فتبعه رجلان صارا فيما بعد من تلاميذه «فالتفت يسوع ونظرهما يتبعانه فقال لهما: ماذا تطلبان، فقالا: ربي الذي تفسيره يا معلم أين تمكث؟ فقال لهما: تعاليا وانظرا، فأتيا ونظرا أين يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم»[١].

لم يشأ يوحنا أن يطلق كلمة «رب» على عيسى من غير تفسير، فقد خشي أن يتصور الناس أن عيسى إله أو بعض إله، ففسر يوحنا الكلمة في صلب الأنجيل نفسه بأنها تعني المعلم، فعيسى بالنسبة لتلاميذه هو معلمهم وأستاذهم.

ومرة ثانية يورد يوحنا حواراً بين عيسى ومريم المجدلية، تطلق فيها الأخيرة على عيسى لفظ «رب» ويحرص يوحنا أيضاً على تفسير اللفظ خلال الحديث درءاً للشك والشبهة، يقول يوحنا «قال لها يسوع يا مريم فالتفتت تلك وقالت له: ربوني الذي تفسيره يا معلم قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى اخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم، فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب، وأنه قال لها هذا»[٢].

هنا تظهر حقائق كثيرة.. عيسى الرب هو الانسان المعلم، والبشر التلاميذ هم اخوته، والله أبوه وأبو اخوته التلاميذ وأبو الناس أجمعين، وإلهه وإله التلاميذ وإله الناس أجمعين. ولفظ

---

(١) يوحنا ١: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) يوحنا ٢٠: ١٦ ـ ١٧.

المعلم هو اللقب العادي الذي اعتاد الناس إطلاقه على عيسى فعندما كان عيسى مع تلاميذه في سفينة وسط البحر. وارتفع الموج وخاف التلاميذ «فتقدموا إليه وأيقظوه قائلين: يا معلم يا معلم، إننا نهلك»[1].

ويحدثنا ستيفن نيل عن استعمالات كلمة رب فيقول: «إن الكلمة اليونانية الأصلية التي معناها رب يمكن استعمالها كصيغة للتأديب في المخاطبة فسجان فيلبي يخاطب بولس وسيلاً بكلمة (سيدي أو ربي: أعمال ١٦/ ٣٠) ولكن يمكن أن تستعمل بمعنى أرفع وأرقى، وكانت تستعمل وصفاً للامبراطور في كل أنحاء الامبراطورية الرومانية كما كانت تستعمل أيضاً لملوك اليهود، وكانت اللفظة لقباً من ألقاب الكرامة خلع على كثير من الآلهة الوثنية وخاصة آلهة أديان الأسرار، ولهذا السبب ذهب بعض العلماء إلى أن لفظ «الرب» أطلق أولاً على يسوع في الجماعات الأممية الناطقة باليونانية وذلك لأنه هو الوصف الذي خلعوه على آلهتهم قبل أن يعتنقوا المسيحية، وكان من الهين على أولئك الأمم أن يقبلوا هذا اللقب الذي كان مألوفاً لديهم»[2].

والواقع أن لفظ رب يستعمل في كثير من المجتمعات وخاصة في الأزمنة القديمة بقصد التكريم والتعظيم، ويتكرر اللفظ كثيراً في أسفار التوراة بمعنى سيد أو معلم، بل لقد ورد في القرآن الكريم بمعنى سيد أو عائل، فيوسف عليه السلام يتحدث

---

(١) لوقا ٨ : ٣٤

(٢) ستيفن نيل - من هو المسيح ترجمة حبيب سعيد - ٤٩

عن سيده العزيز فيقول عنه «إنه ربي أحسن مثواي»[1]، ولم يخطر ببال أحد أن يوسف الصديق يشرك بالله، أو يؤله سيده الذي رباه، بل يدعوه ربه(*) بمعنى أنه عائله وصاحب الفضل عليه.

وحتى الآن نرى الكثيرين منا يتحدثون عن عائل الأسرة أو رئيس المكان فيقول رب الأسرة ورب الدار ولم يدر بخلدأحد عند سماعه هذه الكلمة أن رب الأسرة هو معبود الأسرة أو أن رب الدار هو إله الدار بل إن هذا اللفظ لا يعني سوى التكريم والتقدير للشخص الذي يطلق عليه، وما أطلق على عيسى إلا تقديراً له بصفته المعلم والنبي، ولم يعن به أحد على الاطلاق اشراكاً بالله أو تأليهاً لمن أطلق عليه.

الله لا يرى:

الله تبارك وتعالى يسيطر على ذرات الوجود، ويحيط بأجزاء السموات والأرض، لا يحتويه مكان ولا يحده زمان.

﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير﴾ (الأنعام ١٠٣).

حقيقة وردت في كافة الكتب السماوية واعترفت بها كافة الأديان.

طلب موسى أن يرى وجه الله، فأجابه سبحانه: «**لا تقدر أن**

---

(١) سورة يوسف ٢٣

* الحق أن دلالة هذه الآية غير واضحة فقد قال بعض المفسرين إن المقصود بها هو الله، لكن الآية البيّنة الدلالة هو قول يوسف: (إرجع إلى ربك فأسأله ما بال النسوة).

ترى وجهي، لأن الانسان لا يراني ويعيش»[1].

ويروي القرآن هذه الحادثة فيقول ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربّه قال: ربّي أرني أنظر إليك، قال: لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك[*] وأنا أول المؤمنين ﴾[2].

هذه هي الخشية لله والاجلال والرهبة لعظمة الله، حتى الجبال تخشع وترتعد وتهلع لجلال القدسية والجبروت.

بل إن الأناجيل تؤكد الحقيقة التي يعرفها الكافة، أن الله لم يتجسد ولم يره أحد من الناس ولا يستطيع أن يراه.

يقول بولس في رسالته إلى أهل مدينة كولوسي، إن الله هو «غير المنظور»،[**] ويقول في رسالته إلى صديقه تيموثاوس «الله لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه»[3].

ويقول يوحنا «الله لم يره أحد» (يوحنا ٦/١٨).

ويقرر الأستاذ عوض سمعان «أن المتفحص لعلاقة الرسل والحواريين بالمسيح، يجد أنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه إنسان، ولم يتصوروا على الاطلاق أنه إله، ولكن لماذا؟ لأنهم أي الرسل والحواريين كيهود كانوا يعلمون تمام العلم أن الاعتراف بأن إنساناً هو الله يعتبر تجديفاً يستحق الرجم في الحال، ولأنهم

---

(١) خروج ٢٣ : ٣٠

* أي تبت من سؤالي رؤيتك كما جاء في تفسير ذلك (أنظر تفسير ابن كثير ٢/٢٤٥).

(٢) سورة الأعراف ١٤٣

** ١ : ١٥

(٣) تيموثاوس ص ٦ : ١٦

كيهود أيضاً كانوا يستبعدون أن يظهر الله في هيئة إنسان، نعم كانوا ينتظرون «المسيا» لكن المسيابالنسبة إلى أفكارهم التي توارثوها عن أجدادهم لم يكن سوى رسول ممتاز يأتيه من عند الله، وليس هو ذات الله»[1].

اعتراف صريح يفضح كثيراً من البهتان الذي حاول البعض ادخاله على الحقائق، يفضح كذب القائلين بأن الحواريين ألّهوا عيسى أو اعتبروه فوق الناس بل إن هذا الاعتراف يفضح أيضاً افتراءات البعض بأن بعض آيات التوراة تحدثت عن عيسى الاله وتنبأت عن ظهوره في الجسد، هذا الاعتراف يدحض هذه الترهات ويؤكد أن نصوص العهد القديم كتبها يهود موحدون أتباع لموسى، لم يتصوروا قط بأن إنساناً هو الله أو أن خالق الكون سينزل إلى الأرض ويعاشر المخلوقات، فالقول بهذا تجديف وكفر يستحق الموت، يقول تبارك وتعالى : **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم﴾** (الشورى ٥١).

القرآن والتأليه:

وصدق رب العالمين في كتابه الأمين، إذ يعلن للناس جميعاً أن عيسى أحد مخلوقاته التي أنشأها من العدم، والتي يملك أنفاسها وروحها وحياتها، وخلقها وهدمها وافناءها، عيسى وأمه ومن في الأرض جميعاً في قبضة الرحمن، وكل من يقول غير ذلك، أو يعتوره شك في ذلك، وكل من يدعي أن عيسى

---

(١) عوض سمعان . الله . طرق إعلانه عن ذاته ص ٢٨

المخلوق هو الله الخالق القادر فهو كافر ضال أثيم، طمس بصره وبصيرته، وتبخر عقله وحسه، ومات ضميره وقلبه، فاستحق جزاء الكافرين، النار وبئس القرار، يقول جل وعلا : ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ (المائدة١٧).

ويقول سبحانه: ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً، أن دعَوا للرحمن ولداً، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً، إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً** ﴾[1].

ثم ينبه الكتاب الكريم إلى الحقيقة الهامة وهي أن رسل الرحمن الذين ائتمنهم على رسالته وحملهم شريعته، واختارهم لهداية الناس، واصطفاهم للدعوة للخير، لن يخونوا الأمانة أو يهدموا الثقة، ويدعوا الناس إلى تأليههم أو عبادتهم من دون الله. هذا ما لا يمكن أن يحدث من رسل الله ومختاريه، وما لا يتصور أن يرتكبه أحباء الله ومصطفوه، ولكنهم دائماً عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى السلام يدعون الناس إلى عبادته وحده دون شريك أو شبيه ، يقول أصدق القائلين : ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن**

---

(١) سورة مريم ٨٨ ـ ٩٥

كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾[1].

وفي تشبيه جميل ومحاورة شائقة يستحضر القرآن مشهداً من مشاهد يوم القيامة، يسأل الله فيه عيسى عما نسبه إليه الكافرون. ويشهد سبحانه رسوله على هؤلاء الضالين، الذين انحرفوا عن الطريق، وحادوا عن الحق، ونسبوا إلى نبي الله ما هو منه بريء، يقول تبارك وتعالى لرسوله: **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأُمي إلهين من دون الله، قال: سبحانك ما يكون لي أن أقول ماليس لي بحق، إن كنتُ قلته فقد علمتَه، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علّام الغيوب، ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم، فلما توفيتَني كنتَ أنت الرقيبَ عليهم، وأنت على كل شيء شهيد﴾**[2].

وصدق الله وصدق رسوله عيسى، وصدق المؤمنون بالحق، وكذب الكافرون، وباءوا بالخزي والخسران.

---

(١) آل عمران ٧٩

(٢) المائدة ١١٦ - ١١٧

الفصل السابع

ابن الإنسان

أرسل عيسى للناس برسالة من عند الله، يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، يأمرهم بالخير ويفعله ليقتدوا به، وينهاهم عن الشر ويهجره لينتهوا عنه، فرسول الناس من جنس الناس، ونبي البشر من طبيعة البشر، فليس من المعقول ولا المقبول أن يأتي للناس من هو غريب عنهم، ولا يستطيع أن يرشد الناس من ليس من طبيعتهم ولا جبلتهم، ليس من المعقول ولا المقبول أن يأتي إله أو ملاك، أو طير أو حيوان، أو جن أو شيطان، ليهدي من هم من غير طبيعته وجنسه، فكل مخلوق منا يتأسى ويقتدي بالمخلوقات أمثاله، الحيوان يقتدي بالحيوان، والملاك يتأسى بالملاك، والإنسان يقلد الإنسان، والجان يحاكي الجان، والشيطان ينافس الشيطان، ولا يستطيع الانسان أن يقتدي بالآلهة أو الملائكة أو الجان.

ومهما وجد الانسان في غير البشر من الصفات والمواهب والملكات ما قد يثير إعجابه وافتتـانه، فلن يفكر في تقليد من اعطوا ملكات واستعدادات تغاير ما أعطيه منها، فمهما أعجب الانسان بخفة الغزال، أو قوة الأسد، أو صبر الجمال، أو ثبات الجبال، أو نظر الصقور، أو سرعة الطيور، أو بأي صفـة من صفات غيره من الكائنات والمخلوقات، فلن يفكر في محـاولة تقليدها أو محاكاتها لتيقنه أن هذا ضرب من الاستحالة بل نوع من الجنون، وذلك للاختلاف الواضح بين البشر وباقي الكائنات في الصفات والقوى.

من أجل هذا لم يبعث الله للنـاس رسولاً إلا من نفس طبيعتهم وخلقتهم، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وتتبع أفعاله أقواله، ويسير سلوكه على هدى تعاليمه، فيقتدي به الناس، وينهجون على منواله، يولد بينهم ويعيش في وسطهم، يأكل ما يأكلون ويلبس ما يلبسـون، ويحيا الحيـاة كما يحيـون، يحس بأحاسيسهم وينفعل بانفعالاتهم، تعترضهم المشاكل أو تعتريهم المصاعب فيهرعـون إليه، إلى من صـادف مشاكلهم ومتـاعبهم وعاش فيها وكابدها، فيدلهم على كيفية مواجهتها والتغلب عليها بنفس المكنات التي في طوع البشر، وليس بمكنات الآلهة أو الشياطين، أو الوحوش أو الجان.

ولو بعث الله للناس رسولاً من غير البشر لما اقتنعوا به ولما اتبعوه أو اقتدوا به(*) فشتان بين طبائع الناس وطبائع غيرها من الكائنات، وكيف لـلانسان أن يتخـطى عتبة البشـرية وحـدودها

* بـل لعبدوه ، فقد عُبد عيسى عليه السلام ـ وهو بشر ـ بحجة أنه خلق من أم فقط ، فكيف لو أرسل الله ملائكة ونحو ذلك ؟؟

الضيقة ليقلد ملاكاً أو إلهاً، أو حيواناً أو جاناً، إن كل ما سينطق به هذا الرسول الغريب عن البشر لن يكون في نظرنا إلا ضرباً من الهراء والعبث ونوعاً من السخرية والاستهزاء، قد نعجب بمايقول؛ ـ هـذا إذا فهمناه ـ ولكن كيف لنـا تنفيذه؟ وكيف لنـا تقليده ومحاكاته، كيف نساير هذا الذي اختلفت طبيعته عنا، وتميزت ملكاته منا؟!

إن الانسان لا يرتـاح إلا لانسان مثله، لـه نفس صفاتـه وأحاسيسه وانفعالاته، بل إننا كثيراً ما نحس بالرهبة والشك نحو الغرباء والمختلفين عنا في اللغة أو اللون أو البيئة أو التقاليد مع أنهم بشر مثلنا. فكيف إذا كانوا من جنس غريب عنا مغاير لنا مختلف منا، ثم جاءوا يدعوننا إلى الاستماع إليهم وإلى الاقتداء بهم، هل يمكننا حتى فهمهم؟ أغلب الظن أنهم يسخرون منا.

حقيقة جلاها القرآن في أروع بيان، يقول سبحانه: ﴿**وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا: أبعث الله بشراً رسولاً؟ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً**﴾ (الاسراء ٩٤ - ٩٥).

الرسول من جنس المرسل إليهم، رسول الناس إنسـان، ورسول الملائكة ملاك، رسل الانسان من نفس الانسـان، من نفس طبيعته وجبلته وخلقه وعالمـه، فالانسـان خليفة الله على الأرض، الذي حمل أمانة الوجود، خليق بأن يأتيه من ذاته الدرس والعبرة، وأن يأخذ من نفسـه الموعظة والمثل، وأن يحمل بنفسه الرسالة والشريعة، يقول عز من قائل: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رجيم**﴾ (التوبة ١٢٧).

من أجل هذا كان عيسى إنساناً وابن إنسان(*) ولد كما يولد الناس، وعاش كما يعيش الناس، وذهب كما يذهب النـاس، حملت به مريم وظل في بطنها وبين أحشائها طوال تسعة أشهر، تلقى خلالها الغذاء والنماء، وتكون جسمه وعظمه، وعروقه ودمه وخلاياه ولحمه، وسائر صفاته من جسد أمه النحيل، حتى إذا تمت أشهر الحمل لفظه رحمها، ففطمته ووضعته في حجرها، وألقمته ثديها تسد جوعه وتسكت صراخه، فإذا بال غسلته بالماء وألبسته نظيف اللباس. كم من الليالي سهرت عليه في صحته ومرضه، وكم اعطت من نفسها لبكرها عيسى قبل أن تلد غيره من الأبناء والبنات، وكم انتظرت وزوجها وأهيلهما مرور الأيام ليكبر عيسى في الجسم والعقل، وكم لقنوه التعاليم والشرائع اليهودية ليصير باراً كوالديه، وقليلاً ما أنبوه أو عاقبوه فقد كان في معظم الأحيان خاضعاً لأمه وأبيه، ولما صار صبياً يافعاً علمه أبوه يوسف حرفته، فصار نجاراً ماهراً.(**)

ثلاثون سنة عاشها عيسى قبل أن تأتيه الرسالة، وقبل أن يختاره الله لهداية الناس، لم ير فيه أهله وذووه وسائر مواطنيه أكثر

---

* وقد ورد هذا اللفظ كثيراً في الأناجيل، كما أنه كان يصف نفسه بابن الإنسان كما تقوله الأناجيل (أنظر لوقا ٩ : ٤٤ - ٥٦).

(**) والجدير بالذكر أنه لم يرد لفظ «إبن الله» في الاناجيل الأربعة البتة إلا في أعمال الرسل ٩ : ٢٠ وقد قال ذلك بولس الذي حكى علماء المسيحية تغييره لكثير مما جاء به المسيح من ذلك ما قاله الدكتور شارل جنيبير أستاذ الدراسات المسيحية ورئيس قسم الأديان في جامعة باريس: «لم يقبل اليهود المسيحيون كل هذه التبديلات والإضافات. فعارضوا بولس معارضة قوية». المسيحية ص ١٣ تحقيق الشيخ عبد الحليم محمود.

من نجار عادي أمين، يأكل خبزه بعرق جبينه، ويشقى ويكدح طوال يومه ليقوت أمه الأرملة وإخوته اليتامى.

الأكل والشراب:

خضع عيسى الانسان لكافة الغرائز الانسانية، أكل كما يأكل الناس، وشرب كما يشرب النـاس.

وأكل عيسى للطعام قرره القرآن(*)، يقول سبحانه: ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعـام أنظـر كيـف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون** ﴾ (المائدة ٧).

وعيسى الانسان كغيره من الرسل أبناء البشر يأكلون الطعام ويشـربون المـاء لا يختلف عن إخوتـه الأنبياء في شيء. ولا يختلفون جميعاً عن باقي الناس أبناء آدم في شيء، حقيقة يجليها الرحمن لخاتم المرسلين فيقول: ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق** ﴾ (الفرقان ٢٠).

وأكل الطعام يقتضي إخراج فضلاته، وشرب الشراب يستلزم إنزال فائضاته، وإلا امتلأ الانسان وانتفخ وتسمم ومات ، وقد تعفف القرآن عن ذكر التبرز، والتبول بالنسبة لعيسى وباقي الرسل تسامياً منه في التعبير، واكتفاء بما يفهم من النتيجة الطبيعية للأكل والشـراب.

---

* وقررته الأناجيل ، فإنجيل متى يذكر احتياج عيسى للطعام (متى ١٨ : ٢١) ويوحنا يقرر احتياجه للشراب إذ كان عطشاناً (يوحنا ٤ : ٧)

النوم والراحة:

النتيجة التالية للطعام والشراب، وللجهد والعمل هي التعب والخوار، والرغبة في النوم والراحة لكي يستعيد الانسان صحته ولكي يستفيد من الطعام والشراب. ولكي يواصل الكد والكفاح، ولولا النوم والراحة لفقد الانسان قوته وانهارت أعصابه، ولما استطاع مواصلة حياته أو إتمام رسالته.

وكم تعب عيسى وطلب الراحة(*)، وكم شقي عيسى ورغب في النوم ثم استيقظ أكثر قوة ونشاطاً وحيوية، وكان نوم عيسى أكثر من اللازم بل كان نومه ثقيلاً، من كثرة إرهاقه وتعبه، فكثيراً ما كان يتجول في القرى ويدعو الناس في الطرقات فيغشه سلطان النوم رغم إرادته من كثرة الإرهاق فينام وسط الناس، تحدثنا الأناجيل عن إحدى المرات التي نام فيها عيسى في ظروف كانت تستلزم اليقظة نام في سفينة صغيرة وسط البحر والموج وبين التلاميذ، الكل مستيقظ وعيسى نائم، تقول الأناجيل «وفي أحد الأيام دخل سفينة هو وتلاميذه، فقال لهم: «لنعبر إلى عبر بحيرة، فأقلعوا وفيما هم يسيرون نام، فنزل للتوّ ريح في البحيرة وكادوا يمتلأون ماء، وصاروا في خطر، فتقدموا إليه وأيقظوه قائلين: «يا معلم يا معلم إننا نهلك»[1].

ورغم الرياح العاتية ورغم الأمواج المتلاطمة، ورغم المياه الغزيرة التي انصبت على السفينة الصغيرة وسط البحر، فجعلت

---

* لوقا ٧ : ٢٢ - ٢٤ ، متى ٨ : ٢٣ - ٢٧ ، مرقس ٤ : ٣٥ - ٤٠

(١) وكان عيسى لا يستطيع قطع المسافات الطويلة على رجليه فكان يحتاج إلى دابة ليمتطيها (أنظر لوقا ١٩ : ٢٨).

تتقاذفها كالريشة في مهب الرياح، ورغم كل الضوضاء التي أحدثها الركاب خوفاً وجزعاً فقد ظل عيسى نائماً لا يحس بشيء من هذا ولا يشعر به، ولولا إيقاظ التلاميذ له وطلبهم منه أن يصلي لله طلباً للنجاة لكان من الممكن أن يهلكوا جميعاً بالسفينة وفيهم عيسى نائماً.

ويؤكد القرآن الحقيقة الساطعة وهي أن الله سبحانه علام الغيوب يحيط بذرات السموات والأرض، ولا تسقط ورقة على الأرض أو قطرة من السماء إلا ويعلمها، لا يسهو ولا يغفل ولا يمسه التعب أو اللغوب، ولا يحتاج إلى النوم أو الراحة، يقول الكتاب الكريم: ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم**﴾ (البقرة ٢٥٥).

مواقف ضعف:

عيسى الانسان كثيراً ما ضعف أمام الطبيعة كما ضعف أمام غيره من الناس، مواقف ضعف ألمت بعيسى فأخرجته عن طوره، وجعلته يرتكب هفوات تحسب على الأقوياء، مواقف ضعف أحالت هدوء عيسى غضباً وصخباً، مواقف ضعف جزع لها عيسى فهرب، ومواقف ضعف ألمت بعيسى فحزن وبكى، ومواقف ومواقف كلها تعرض لها كافة الأنبياء البشر.

الغضب والصخب:

كانت طبيعة عيسى العادية الهدوء والتسامح، وتجنب المتاعب والمشاكل ولكن الظروف كانت تخرجه في بعض الأحيان عن طوره فيغضب.

دخل مرة هيكل سليمان ليعلم قومه الشريعة فشاهد باعة البهائم والدواجن وصيارفة النقود يزحمون صحن الهيكل وبابه، فحمى غضبه كرامة لهيكل اليهود وقام يقلب موائد الباعة والصيارفة ويفسد البضاعة ويضرب بالسياط والأيدي، تقول الأناجيل «وكان فصح اليهود قريباً فصعد يسوع إلى أورشليم، ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً والصيارف جلوساً، فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل، الغنم والبقر، وكب دراهم الصيارفة وقلب موائدهم»[١].

الخوف والهرب:

كان عيسى الانسان يخاف أخاه الانسان، كان يهرب من أعدائه ويختفي من مناوئيه، ركبت فيه غريزة حب البقاء كما ركبت فينا، فكان يخشى الإيذاء ويهلع من الضرر، ويخاف على حياته أن يسكت خلجاتها أعداؤه قبل أن يتم الرسالة التي بعثه الله بها.

تحدثنا الأناجيل أن عيسى كان يسارع بالهرب بمجرد شعوره بالخطر، وعند أول بادرة لمحاولة إيذائه أو الاعتداء عليه، وبالغت

---

(١) يوحنا ٢ : ١٣ ـ ١٥ ، متى ٢١ : ١٢ ـ ١٣ ، مرقس ١١ : ١٥ ـ ١٦

الأناجيل في قدرة عيسى على التخفي والهرب فقررت أنه كان ينفلت من وسط الناس فلا يشعروا به، وكان يفر منهم إلى أبعد الأماكن فلا يستطيعون له إمساكاً ولا يملكون به لحاقاً.

يحدثنا متى أن أحد طوائف اليهود غضبوا على عيسى لتمييزه تلاميذه، وأن الفريسيين أرادوا القبض عليه وقتله، ففهم عيسى مرادهم وانصرف عنهم دون أن يشعر به أحد، يقول متى «فلما خرج الفريسيون تشاوروا عليه لكي يهلكوه، فعلم يسوع وانصرف من هناك» (متى ١٢، ١٤ ـ ١٥) ومرة أخرى دبت مشادة كلامية بين عيسى وبعض اليهود فغضب القوم لحديثه، وأمسكوا بالحجارة لكي يرجموه، ولكنه كعادته اختفى من وسطهم وهرب من بينهم دون أن يحسوا به، يقول يوحنا: « فرفعوا حجارة ليرجموه، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا»[١].

ومرة ثالثة حاولوا أن يمسكوه فأفلت من بين أيديهم «فطلبوا أن يمسكوه فخرج من أيديهم»[٢].

ومرة رابعة غضب جميع السامعين « فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاءوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبينة عليه حتى يطرحوه إلى أسفل . أما هو فجاز في وسطهم ومضى »[٣] .

---

(١) يوحنا ٨ : ٦٩

(٢) يوحنا ١٠ : ٣٩.

(٣) لوقا ٤ : ٢٩ ـ ٣٠

الحزن والبكاء:

بكى عيسى في ظروف كثيرة، بكى خوفاً على مصيره من أن يمسك به اليهود ويقتلوه، وتصبب منه العرق حزناً وخوفاً حتى صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض كما تقرر الأناجيل[1].

بكى عيسى مراراً، بكى من فراق أحبابه ومن موت أصدقائه، أتت إليه يوماً مريم المجدلية وأخبرته بموت شقيقها العازر فانزعج عيسى واضطرب، وحزن وتألم، وبكى وتأوه. يقول يوحنا: «فلما رآها يسوع تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب، وقال: أين وضعتموه. قالت له: ياسيد تعال وانظر، بكى يسوع، فقال اليهود انظروا كيف كان يحبه»[2].

وعيسى كان يحب عاصمة بلاده أورشليم، وكان يريدها أن تسود بلاد العالم وأن تحكم البسيطة، ولكن يبدو أنه شاهد لها حلماً أزعجه، شاهدها منكسرة مدحورة، محاصرة بالأعداء والطامعين، مهدمة على بنيها فحزن عيسى وانزعج، وبكى واضطرب، حزن على المدينة المقدسة وعلى مواطنيه أبناء يهوه وأخذ يناجي مدينته كما يناجي الطفل جثة أمه الميتة، وكما يتأوه اليتيم لفراق عائله الوحيد.

يقول عنه لوقا: «وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلاً: إنك لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو

---

(١) لوقا ص ٢٢ : ٤٤ «وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة، فصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض».

(٢) يوحنا ١١ : ٣٣ - ٣٦

لسلامك ولكن الآن قد أخفي عن عينيك، فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحقدون بك ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك ولا يتركون فيك حجراً على حجر»[1].

في قبضة الشيطان

وقع ابن الانسان يوماً في قبضة الشيطان كما قد يقع أي منا في قبضته، وسمح الله للشيطان أن يجرب(*) عبده عيسى، ليختبر مدى إيمانه وثبات يقينه، ليكون مستحقاً لتلقي رسالة السماء، جرب عيسى من الشيطان قبل أن يبعث رسولاً ليكون امتحان الشيطان له ونجاحه فيه جديراً بأن يجعله رسولاً لرب العالمين.

أتى الشيطان إلى عيسى وهو جائع، وأمره أن يسأل الله أن يحول الحجارة إلى خبز ليسد جوعه، ولكن عيسى أجابه «مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله»(*).

ويعود الشيطان فيسأل عيسى الانسان أن يجرب الله ربه ليعرف حبه ومدى حرصه عليه، فيأخذ الشيطان عيسى بين يديه ويذهب به إلى أورشليم ليوقفه على جناح الهيكل ويطلب منه أن يلقي بنفسه إلى أسفل مؤكداً له أنه لن يموت. ويرفض عيسى إطاعة الشيطان والاستجابة لرغباته، ثم يعلن له شريعة التوراة «مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك».

إجابة يؤكد بها عيسى للشيطان أنه لا يستطيع أن يجرب

---

(1) لوقا ١٩ : ٤١ ـ ٤٤.

* يبدو أن كلمة (يجرب) (تجربة) تساوي (يبتلي ـ إبتلاء)

* أنظر متى ٤ : ١ ـ ١٢

إلهه وأنه كمخلوق ضعيف لا يمكنه تجربة الخالق، فلا ينبغي للبشر أن يجربوا الله، وعيسى أحد البشر يسري عليه ما يسري عليهم. ويتململ الشيطان ويتضجر خوف الخسران فيلقي بورقته الباقية وبإغرائه الأخير وبفتنته الكبرى. يقول متى «ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي(*). حينئذٍ قال له يسوع: «اذهب يا شيطان لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد»[1].

ألقى الشيطان بآخر سهم في جعبته ليستهوي ابن الانسان ويخضعه لسلطانه، أخذ إبليس عيسى في قبضته وارتفع به إلى جبل عال جداً قد يكون قمة أفرست في الهملايا، وأراه ممالك الدنيا وزينتها وزخرفها ووعده بإعطائه إياها وتنصيبه ملكاً عليها إذا سجد للشيطان وصار عبداً له، ولكن عيسى المؤمن رفض أن يبيع نفسه للشيطان، وعلم أن من يسجد للشيطان فإنما يكفر بالله، ومن يعبد الشيطان يصبأ عن عبادة الرحمن، فليس لأحد في الوجود سلطان ولا سجود ولا عبادة إلا لله وحده لا شريك له.

أحس عيسى بالحفرة التي أراد الشيطان أن يوقعه فيها مغرراً به، وفطن إلى الهوة السحيقة التي تنتظره إذا استمع للشيطان، فرفض عرض إبليس، رفض ممالكه ومجد دنياه، وفضل رضى خالقه ومولاه طمعاً في ثوابه وبهاه.

(١) أنظر متى ٤ : ١ - ١٠ ، لوقا ٤ : ١ - ١٣

* تأمل كيف يغري الشيطان المسيح بقطعة من الأرض مع أنهم يزعمون أن المسيح جزء من الإله ، فإن كان ذلك حقاً كما يقولون لقدر له أن يقول للشيطان : أتعرض عليّ شيئاً أنا خالقه ومالكه ؟!! لكن الشيطان يعرف جيداً من هو المخاطب . . إنه إنسان عادي .

وتجربة الشيطان لعيسى تستحق التأمل، فإذا كان عيسى هو الله كما يزعمون، فكيف يتقدم الشيطان وهو المخلوق لتجربة الخالق، لا يجربه فقط بل يأخذه في قبضته كلعبة بين يديه ويتسلط عليه، ويمتحنه ويختبره ويسبر غوره، ويأمره بالركوع والسجود له، هل يستطيع الشيطان أن يتسلط على الخالق؟ وهل يعقل أن الله يسجد للشيطان؟

ثم بماذا يغري الشيطان ربه؟ أيغريه بالدنيا وهو صانعها، أم يغريه بالناس وهو خالقهم؟ ثم من هو الله الذي له وحده يسجد عيسى وإياه وحده يعبد؟

وعيسى الانسان الذي فشل الشيطان في غوايته وفي الانحراف به عن طريق الحق. لم يفعل أكثر مما فعله إخوته الأنبياء الذين أفسدوا حيل الشيطان وخيبوا خططه معهم، فاستحقوا عن جدارة اختيارهم للرسالة واصطفاءهم للنبوة، يقول جل وعلا لخاتم المرسلين : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمني ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يُلقي الشيطان ثم يُحكم الله آياته، والله عليم حكيم، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وإن الظالمين لفي شقاقٍ بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم** ﴾[١] .

الصلاة والدعاء:

وعيسى العبد الصالح كان دائم الصلاة والدعاء لمولاه، كان

(١) سورة الحج ٥٢ ـ ٥٤

مثال المتعبد الخاشع المتضرع لله، كان دائماً في ركوع وسجود وشكر وحمد، وتهجد وتبتل لرب العالمين، كان يعلم أن الصلاة هي الصلة الوثيقة والرباط المحكم الذي يربط الانسان بخالقه، وأنها أساس الإيمان وعماد الدين فحرص عليه السلام كسائر إخوته الأنبياء والصالحين أن يوطد هذه الصلة بينه وبين الخالق تبارك وتعالى، فكان يصل الليل بالنهار، والفجر بالضحى في عبادة الله ومناجاة علاه.

والأناجيل مليئة بالحديث عن صلاة عيسى . . العبد التقي الورع . « فقال للتلاميذ : اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي هنا »[1] « وبعد ما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي ولما صار المساء كان هناك وحده »[2] « في ذلك الوقت أجاب يسوع وقال : أحمدك أيها الأب ربّ السماء والأرض »[3] . « وفي الصبح باكراً جداً (عند الفجر) قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلي هناك »[4]. وبعد ما ودعهم مضى إلى الجبل ليصلي »[5] .

«وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلي »[6].

«وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة لله »[7] .

عيسى يصلي لله في كل وقت، في العسر واليسر، وفي الليل وعند الفجر، يهرع إليه وقت الكروب ويحمده عند الاستجابة، يروي لنا لوقا عن احدى الضيقات التي ألمث بعيسى

---

(١) متى ٢٦/ ٣٦
(٢) متى ١٤/ ٢٣
(٣) متى ١١/ ٢٥
(٤) مرقس ١/ ٣٥
(٥) مرقس ٦/ ٤٦
(٦) لوقا ٩/٩/٢٨
(٧) لوقا ٦/١٢

عندما حاول بعض اليهود قتله لاعتقادهم ضلاله وكذبه، فيهرع عيسى إلى الجبل يضرع إلى الله أن يخلصه من أعدائه. يقول لوقا «وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون وتبعه أيضاً تلاميذه ولما صار إلى المكان قال لهم: صلوا لكيلا تدخلوا في تجربة، وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى قائلاً: «يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك، وظهر له ملاك من السماء يقوّيه، وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض»[1].

عيسى يصلي لله وقت الضيق، وأي صلاة تلك التي يصليها عيسى لربه، إنها أعمق صلاة إنه يركع على الأرض ويجثو على ركبتيه ويدفن رأسه وهامته في التراب الذي منه خلق، ثم يرفع نظره إلى السماء ويبتهل إلى خالقه ويخشع له ويهلع، ويتضرع إليه ويخضع، يصلي بأشد لجاجة وبأعنف حرارة حتى يتصبب منه العرق، وتتساقط قطرات العرق من جسده مشبعة بدمه.

حرارة في الصلاة وتألم وبكاء، وتذلل وخضوع، واستعطاف وخشوع، لا يبررها إلا البشرية والعبودية التي تربط عيسى بمولاه.

ويروي الأنجيل أنه أثناء صلاة عيسى ظهر له ملاك من السماء ليقويه، ويبدو أن الله قد عطف على عبده وأراد أن يزيل عنه خوفه، وأن يهدىء من روعه ويخفف من ذعره، فبعث له سبحانه أحد ملائكته ليقوي عزمه ويشد أزره، فلا ينهار أمام

---

(١) لوقا ٢٢ : ٣٩ ـ ٤٤

الظروف ولا يستسلم لأعدائه، أرسل الله لعبده ملاكاً يبشره أنه لن يتركه في أيدي الغادرين، بل سيخلصه من أعداء الحق والدين، ملاك مخلوق كعيسى حمل إليه رسالة النجدة والخلاص، فرفع معنوياته وطمأن قلبه وأعاد إليه السكينة والهدوء، كل ذلك بفضل الدعاء والصلاة.

يقول عز وجل: **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾**[1].

صراخ المصلوب:

من المؤكد أن المصلوب ظل يصرخ ويستغيث طالباً النجاة، هذا الصراخ ليس مجرد صراخ المستغيث ولكنه صراخ اليائس، فلقد يئس المصلوب من النجاة وأحس بأن الله قد تخلى عنه وتركه في أيدي جلادية يعذبونه ويصلبونه، إنه يصرخ إلى ربه قائلاً: إلهي إلّهي لماذا تركتني؟ لماذا تركت عبدك الضعيف في أيدي جزاريه؟ ولماذا تخليت عن عبدك المسكين في ساعة العسرة.

إن هذا الصراخ من المصلوب ليس صراخ عيسى. فليس عيسى بالذي ييأس من رحمة الله. وليس عيسى بالذي يتركه ربه، وليس عيسى بالذي يعاتب الله لتركه إياه، إننا نرفض القول بأن ثقة عيسى في الله قد ضعفت في يوم من الأيام، أو في وقت من الأوقات ولو كانت أشد اللحظات قسوة، فليس عيسى بأقل حالاً من آلاف الشهداء في مختلف العصور الذين استقبلوا الموت

(١) سورة النساء ١٧٢

فرحين مستبشرين، وما صراخ المصلوب وهلعه، وما يأسه وجزعه، إلا دليل آخر يضاف إلى مئات الأدلة التي تؤكد أن المصلوب ليس عيسى، وأن الله ليس عيسى.

عيسى بين الناس:

والناس جميعاً من معاصري عيسى ومواطنيه، وممن رأوه وجالسوه وتحدثوا إليه وآكلوه، من عاش بينهم وصادقوه، أو من لم يؤمنوا به وعادوه، هؤلاء جميعاً لم يروا في عيسى إلا إنساناً مثلهم بشراً مخلوقاً كغيره من أبناء آدم.. خلاف واحد نشب بين هؤلاء وهؤلاء بشأن عيسى الانسان، خلاف بين محبيه ومبغضيه، بين أصدقائه وأعدائه، فأحباء عيسى رفعوه إلى مرتبة النبوة واعتبروه رسولاً. أما أعداؤه فأنزلوه إلى مرتبة الأدعياء الكاذبين واعتبروه دجالاً، وبين الأحباء والأعداء لم ير فيه باقي الناس سوى ابن الانسان.

رفع الأصدقاء والأحباء عيسى إلى مرتبة النبوة. وصدقوا أنه رسول من لدن رب العالمين، يتحدث عنه رجلان من محبيه فيقولان «كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب»[1]. وتتحدث إليه المرأة السامرية التي قابلها عند البئر «قالت المرأة: يا سيدي أرى أنك نبي»[2][*]. وعندما كان عيسى يعظ الناس ويبلغهم رسالات ربه «فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا: هذا بالحقيقة هو النبي»[3].

---

(١) لوقا ٢٤ / ١٩

(٢) يوحنا ٤ / ١٩

(٣) يوحنا ٧ / ٤٠

(*) رضي المسيح بهذا الوصف ولم يعترض عليه وما كان ليرضاه ويقره لو كان إلهاً أو بعض إله.

وفي إنجيل متى نرى عنه «ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا؟ فقالت الجموع هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل»[1].

وفي إنجيل لوقا نرى الناس يتحدثون عنه قائلين «قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه»[2].

ونرى في إنجيل يوحنا قول الجموع عن عيسى «إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم»[3]. وعندما هاجم عيسى كهنة اليهود وأرادوا القبض عليه وتعذيبه خافوا من الشعب لأنه كان في منزلة الأنبياء «ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه يتكلم عليهم، وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبي»[4].

مع التلاميذ:

وتلاميذ عيسى الذين كانوا لا يفارقونه بالليل أو النهار، والذين كانوا يعرفون من أمور عيسى ما لا يعرفه العامة والغوغاء، والذين كان يطلعهم عيسى على الأسرار والخفايا التي يحجبها عن الجماهير، ماذا عرفوا عن عيسى وماذا حسبوه؟ هل اعتبروه إنساناً، وأي إنسان يكون؟

هذا خليفته بطرس يقول عنه «يسوع الناصري رجل قد

---

(١) متى ٢١ : ١٠ ـ ١١

(٢) لوقا ٧ : ١٦

(٣) يوحنا ٦ : ١٤

(٤) متى ٢١/ ٤٥ ـ ٤٦

تبرهن من قبل الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده»[1].

وهذا بولس يتحدث عن عيسى فيقول : « الانسان يسوع المسيح »[2].

والحقيقة أن الوصف الذي أطلق على هؤلاء الحواريين يوضح ببساطة كل شيء، الوصف الذي اطلقه عيسى عليهم، والذي اصبحوا يتباهون به، وصار الناس جميعاً يعرفونهم به.. التلاميذ، تلاميذ من؟ تلاميذ عيسى. فمن يكون عيسى إذن؟ إنه المعلم، معلم التلاميذ، ومعلم الشريعة، ومعلم الديانة ومعلم الناس.

كان لقب المعلم هو اللقب المفضل لدى تلاميذ عيسى، ينادونه به فيفرح له وينشرح صدره، ما أحلاه من لفظ وما أجملها صفة تخلع على عيسى صفة المعلم والمرشد، المعلم الذي أرسله الله ليعلم الناس طريق الحق، وليرشدهم إلى سبيل الهدى.

ومن يتصفح الأناجيل يلاحظ بجلاء إصرار تلاميذ عيسى وأخصائه على مناداته بهذا اللقب العظيم، نرى في إنجيل مرقس حديثاً عن عيسى «وفيما هو خارج من الهيكل قال له واحد من تلاميذه: يا معلم أنظر ما هذه الحجارة وهذه الأبنية»[3].

---

(١) أعمال ص ٢ / ٢٢
(٢) تيموثاوس الأولى ص ٣ / ٥
(٣) مرقس ١٣ / ١١

وهذا يوحنا ابن زبدى تلميـذ عيسى يناديـه بنفس اللقب «فأجابه يوحنا قائلاً: يا معلم»[1].

وبطرس التلميذ الأكبر «قال بطرس ليسوع: يا معلم جيد أن تكون ههنا»[2].

وجميع التلاميذ ينادون أستـاذهم بذات اللفظ «وفيمـا هو مجتاز رأى إنساناً أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين: يا معلم من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى»[3].

وكان تلاميذ عيسى يهتمون بـأمرمعلمهم ويحـرصون على إشباع حاجاته الطبيعية والغريزية، من مأكل ومشرب وراحة ونوم وحماية وحراسة، حتى إذانسي هو هذه الحاجات في خضم حماسه للتعليم والوعظ، كانوا يذكرونه بحق جسده عليه باعتباره إنساناً.

يحدثنا يوحنا إنه في أحد المرات كان عيسى يعظ احدى النسوة وبقي يحادثها عدة ساعات حتى حان وقت الطعام فذكره تلاميذه وطلبوا منه أن يأكل، يقول يوحنا «وفي أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين: يا معلم كل»[4].

وكان التلاميذ المخلصون يخافون على معلمهم النحيل أن يهلك بأيدي أعدائه أو يناله الأذى بتدبير غرمائه، فكانوا يحرصون على إبعاده عن أماكن الخطر، يروي يوحنا أن عيسى أراد أن

---

(١) مرقس ٩ : ٣٨

(٢) لوقا ٩ / ٣٣

(٣) يوحنا ٥ / ١ ـ ٢

(٤) يوحنا ٤ / ٣١

يذهب إلى بلدة اليهودية احدى قرى إسرائيل ليعود صديقاً هناك، وكان أغلب أهل هذه القرية معروفين بعدائهم لعيسى، فلما أخبر المعلم تلاميذه برغبته خافوا عليه وسألوه ألا يذهب حرصاً على حياته، يقول يوحنا إن عيسى «قال لتلاميذه: لنذهب إلى اليهودية أيضاً، قال له التلاميذ يا معلم الآن كان اليهود يطلبون أن يرجموك وتذهب أيضاً إلى هناك».

والذي يلاحظ الجرأة والجسارة التي كان يتحدث بها التلاميذ إلى معلمهم، دون رهبة ودون تكلف أو خشية، يملؤه اليقين بأن هؤلاء الذين خالطوا عيسى روحاً وجسداً والذين ناموا معه وقاموا، لم يروا فيه سوى إنسانٍ عاديٍّ لا يختلف عنهم في شيء، ولا يتميز منهم بغير الرسالة التي اختاره الله لها، بل إن عيسى المعلم لم يعدم أن يجد بين تلاميذه من ينتقد تصرفاته في غير موضوع الرسالة.

يحدثنا يوحنا عن دهشة التلاميذ وتعجبهم عندما شاهدوا معلمهم يقف يوماً بأكمله يتحدث فيه مع امرأة سامرية، تاركاً جماهير الشعب والجموع والأتباع، ولم يشأ التلاميذ في البدء احراج معلمهم فكتموا الأمر في نفوسهم. يقول يوحنا «وعند ذلك جاء تلاميذه وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة، ولكن لم يقل أحد ماذا تطلب أو لماذا يتكلم معها»[١] وكم عارض بطرس معلمه في تصرفاته، وكم ناقضه في أقواله وأفعاله، يقول متى «فأخذه بطرس وابتدأ ينتهره»[٢].

---

(١) يوحنا ٤ / ٢٧

(٢) متى ١٦ : ٢٢

إبن الإنسان:

ويحرص عيسى طوال أحاديثه مع الناس أن يدعو نفسه بهذا اللقب «ابن الإنسان». ويتكرر هذا الوصف لنفسه على لسانه في كافة الأناجيل.

(أنظر مثلاً متى ٨، ٣٠، ١١:١٩، ١٢: ٣٢/٤٠، ٢٠: ٢٨، ٢٤: ٣٠، ٢٥: ٣١، ٢٦: ٢٤، مرقس ٢: ٢٨، ٩/٩، ١٤: ٤١، لوقا ٩/٥٦، ١٧: ٢٤، ١٨: ٨، يو ٣: ١٣، ٥: ٢٧، ١٣:٣١، ٦: ٢٧ وغيرها كثير).

ويحدثنا الكاتب أميل لوذفيج عن تصور عيسى لنفسه فيقول «لم يفكر يسوع في أنه أكثر من نبي وليس بقليل أن يرى نفسه في بعض الاحيان دون النبي. ولم يحدث أبداً من يسوع ما يخيل به إلى السامع أن له خواطر وآمالاً فوق خواطر البشر وآمالهم. وما كان يسبوع ليذهب إلى أبعد من ذلك فيدعي أنه المنقذ المنتظر فإذا ما قال الناس إنه أحد قدماء الأنبياء راقه ذلك موجهاً أفكارهم إلى ملكوت السموات، والآن يجد يسوع كلمة جديدة صالحة للتعبير عن تواضعه بقوله عن نفسه إنه «ابن الإنسان» وقديماً أراد الأنبياء أن يلفتوا الأنظار إلى الهوة الواسعة التي تفصلهم عن الله، فكانوا يسمون أنفسهم بأبناء الانسان. ومن هؤلاء دانيال وحزقيال اللذان أظهرا الرب مخاطباً كل واحد منهما «بابن الانسان» أي بآدمي ضعيف هالك ولد ليفنى ولكن مع استعداد لنيل عفو الرب»[1].

(١) أميل لودفيج: إبن الإنسان ـ ترجمة عادل زعيتر ص ٩٥

وإذا ناداه التلاميذ باللقب الذي كان يحلو لهم إطلاقه عليه «المعلم» سر به ودعا أتباعه أن يعتبروا الله أباهم وأن يعتبروه معلمهم. يقول عيسى «لا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات، ولا تدعوا لكم معلمين لأن معلمكم واحد المسيح»[1].

وهذا المعلم ابن الانسان لا يعلم من عنده، ولا يتكلم من ذاته، ولا يعظ من نفسه، فليس التعليم تعليمه وليست الرسالة رسالته، وليست الشريعة شريعته، وإنما هو تعليم الله. ورسالة الله، وشريعة الله. وليس عيسى إلا مبلغاً ومذكراً ورسولاً، فمن قبل تعاليمه فإنما يقبل تعاليم الله، ومن يؤمن به فقد آمن بالله، ومن يقبله يقبل الله.

حقيقة يعلنها عيسى دائماً، ويرددها بلا وجل ولا حرج، يقول عيسى: «ما أتيت لأصنع مشيئتي، بل مشيئة من أرسلني»[2].

«كما أن تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني»[3] لذلك فإن «من قبلني فليس يقبلني أنا بل الذي أرسلني»[4] و«الذي يؤمن بي ليس

---

(١) متى ٢٦ / ١٨
(٢) يوحنا ٣٨/٦
(٣) يوحنا ١٦/٧
(٤) مرقس ٣٧/٩

يؤمن بي بل بالذي أرسلني »[1] .

ولكن من هو الذي أرسل عيسى؟ ومن هو سيد عيسى ومولاه؟

في محاورة بين عيسى وبعض اليهود يعلن عيسى أن مرسله هو الله ربه ورب العالمين، وأنه لا ينطق إلا بما أمره الحق تبارك وتعالى. يقول يوحنا : «فقال لهم يسوع: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم. أنتم تعملون أعمال أبيكم، فقالوا له: إننا لم نولد من زنا لنا آب واحد وهو الله. فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قبل الله وأتيت، لأني لم آت من نفسي بل ذاك الذي أرسلني»[2].

ويطلب عيسى من مواطنيه أن يؤمنوا به كرسول من عند الله، يقول يوحنا: « ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله، أجاب يسوع وقال لهم: هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله»[3]. ويؤكد عيسى دواماً أنه ينفذ مشيئة الله ويبلغ شريعة الله ويدعو دائماً لله ولا يفعل من نفسه شيئاً ولا يدعو لنفسه أبداً، وإلا كان كاذباً دعياً، يقول عيسى «إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي، من يتكلم من

---

(١) يوحنا ١٢/ ٤٤

(٢) يوحنا ٨ : ٣٩ ـ ٤٢

(٣) يوحنا ٦ : ٣٨ ـ ٩

نفسه يطلب مجد نفسه وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق(*) وليس فيه ظلم[1] .

ويشبه عيسى نفسه بالأنبياء قبله، بيونان ويوحنا وغيرهم من الأنبياء، فهو نبي من أنبياء الله كالسابقين، ورسول من رسله الصالحين، يقول عيسى «كما كان يونان آية لأهل نينوى كذلك يكون ابن الانسان أيضاً لهذا الجيل»[2].

ويقول لليهود «معمودية يوحنا من أين كانت؟ من السماء أم من الناس؟.. ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا»[3] أتى مرة لزيارة أورشليم فطلبوا منه أن يغادرها لأن الحاكم هيرودس يريد قتله. «في ذلك الوقت تقدم بعض الفريسيين قائلين له: اخرج واذهب من هنا لأن هيرودس يريد أن يقتلك»، ويتضايق عيسى من هذه المعاملة السيئة، ويتبرم بهؤلاء القوم الذين طالما أساؤوا معاملة إخوته الأنبياء السابقين، فحاربوا من شاؤوا بلا ذنب ولا جريرة، يرد عيسى على أهالي أورشليم موضحاً لهم صفته كنبي من الله، معاتباً المدينة التي طالما قتل فيها الأنبياء قبله فيقول «ينبغي أن أسير اليوم وغداً وما يليه لأنه لا يمكن أن

---

* والمسيح هنا لا يريد تمجيد نفسه ألبتة ، وإنما تمجيد الرسالة الإلهية التي أرسل بها ، لكن النصارى لم يمجدوا الرسالة ولا صاحبها ، حتى أن الرسالة حرفت ومُجِّد المسيح من دون الله . فخالفوا بذلك مراد المسيح الذي عبر عنه في هذه الجملة .

(١) يوحنا ٧ : ١٧ - ١٨

(٢) لوقا ١١ / ٣٠

(٣) متى ٢١ / ٢٣ - ٢٧

يهلك نبي خارجاً عن أورشليم، يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها»[1].

ويخاطب الكتاب الكريم مكذبي الرسل وقاتلي الأنبياء فيقول لهم متوعداً: ﴿ **أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ، وقالوا : قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون** ﴾ [2] .

وابن الإنسان عيسى كان مثال التواضع ، رفض أن يرفعه الناس فوق مرتبته ، أو يمنحوه سلطة ليست له أو يدعوه بوصفٍ ليس فيه .

أتى رجل إلى عيسى ووصفه بالصلاح ، يقول متى « وإذا واحد تقدم وقال له : أيها المعلم الصالح ، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية . فقال له : لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله » . حتى صفة الصلاح رفض عيسى أن يتصف بها ، فابن الإنسان شأنه كسائر إخوته البشر ، قد يصيب وقد يخطىء ، وقد يحسن وقد يسيء، وقد يصلح[*] وقد يفسد ، وليس صالح إلا الله ، رب عيسى ورب الناس أجمعين .

يورد الحواري برنابا في إنجيله إعلان عيسى للناس مؤكداً لهم عبوديته لرب العالمين، مبرئاً نفسه من ترهات المشركين والكافرين، يقول عيسى «إني أشهد أمام السماء. وأشهد كل

---

(١) لوقا ١٣ / ٣١ - ٣٤

(٢) البقرة ٨٧ - ٨٨

* إذن فالصلاح صفة يمكن أن تتحقق في البشر ، ولا شك أن عيسى عليه السلام في الذروة منه. كيف لا وهو واحد من أولي العزم من الرسل. ثم إن صفات الله توقيفية وليس فيها صفة « الصالح » .

ساكن على الأرض أني بريء من كل ما قال الناس عني من أني أعظم من بشر ، لأني بشر مولود من امرأة وعرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر عرضة للشقاء العام »(*) .

وتروي الأناجيل عنه أنه كان يغسل بنفسه أرجل تلاميذه ، وينحني بهامته تحت أقدام التلاميذ ، يأخذ أرجلهم المتسخة بين يديه النظيفتين . ويصب عليها الماء ويدلكها بالصابون في عناية ثم يمسحها بالمنشفة . يروي يوحنا أن عيسى « قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتزر بها ، ثم صب ماء في مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متزراً بها » [1] .

هذا التواضع وهذا الإنسياق هو الذي دعا بولس أن يشبه عيسى بالعبد ، يقول بولس عن عيسى « أخلى نفسه آخذاً صورة عبد »[2] صدق بولس ، وصدق الناس ، وصدق عيسى قبل الجميع فعيسى حقاً هو العبد ، عبدالله ورسوله ، نعم العبد الصادق الأمين ، كان أميناً في القليل فأقامه الله على الكثير . وضع نفسه في موضعها ، والتزم طبيعته وحدوده لم يرض أن يغتصب شيئاً ليس له ، أو يدعي صفة ليست فيه .

نعم العبد الصالح ، الذي أبلغ الرسالة . وأدى الأمانة ، فاستحق رضا الله والناس ، وصلا الله والملائكة ، ونعيم الله

---

*إنجيل برنابا ٩٤ : ١ صفحة ١٥٥ .

(١) يوحنا ١٣ : ٤ ـ ٥.

(٢) أعمال ص ٢/٦ .

وجناته ، ﴿ قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً اينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ، ذلك عيسى بن مريم ، قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم ﴾[1].

---

(١) سورة مريم ٣٠ - ٣٦

فهرس الكتاب

الفصل الثالث : حديث المعجزات

الفصل الرابع : رسالة المسيح

الفصل الخامس : الكفارة والصلب

الفصل السادس : تأليه عيسى عليه السلام

الفصل السابع : إبن الإنسان